ابن دراج القسطلي

شـــاعر المنصور بن أبي عامر

الدكتور عبد المنعم احمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
بالمنوفيـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وامام المرسلين وعلى آله وصحبه ، ومن نهج نهجهم ، وســـلى طريقهـم الى يوم الدين .

وبعـــد

فالشعر الأندلسى له طابعه المميز ، وسمته الواضحة ، وأصـــالته الدالة على ثبوت قدم ، ورسوخ فى مضمار الشعر ، فقد ســـار شعراؤه فى درب شعراء المشارقة وأجادوا فى أغراض كثيرة ، بل انهـــم بدوا المشارقة فى شعر الوصف الذى وهبتهم اياه طبيعة الأندلس الخلابة . جذبتهم رياضة فوصفوا أزهارها ورياضيها وتغنوا بورودها وأفانيتها وشدوا بما شأنه امتاع النفس ، واشباع الغرائز ، وفتنتهم حيـــاضه فهاموا بوديانه وأولعوا بمائه وخلجانه ، وقف ابن عبـــاد مرة ينظر الى صفحة الماء وقد أتى عليها النسيم فتخيل أنهـــا أشبه ماتكـــون بحلق الحديد التى تصنع منها الدروع ، وابن عباد شـــاعر وفارس فأخذ منه هذا المنظر ما أخذ فقال لابن عمار الشاعر الأندلسى أجز يا ابن عمار .

صنع الريح من المـــاء زرد

ولما لم يستطع ابن عمار الاجازة أجازته فتاة ذات خيـــال محلق اسمها اعتماد الرميكية كانت تملأ جرارا بالقرب منهما فقالت

ياله درعا منيعـــا لو جمـــد

وهكذا كان الأندلسيون ينعمون بخيال خصب نماه لديهم ذلك الجو الشاعرى الذى كانت تنعم به بلاد الأندلس ، فتغنى بها الشعراء ، وهام فى رياضها العشاق والمحبون .

ولقد رأيت أن أقدم للقراء شاعرا أندلسيا ذاع صيته ، وعلا فى سماء الشعر نجمه انه الشاعر ابن دراج القسطلى شاعر المنصور بن أبى عامر الذى صحبه فقال فيه روائع حفظها الزمن ووعاها التاريخ .

واذا كان الشعراء الأندلسيون ـ كما أسلفت ـ قد ساروا على نهج اخوانهم المشارقة فى كثير من الأغراض كالخمريات والغزل بالمذكر فان طبيعة بلاد الأندلس قد فرضت عليهم ألوانا خاصة من الشعر الرسمى ، والشعر الشعبى ، فمن الشعر الرسمى وصف مظاهر الطبيعة من ورد وأزهار وجبال ووهاد ، حتى انهم جعلوا هذا الوصف موضوعا مستقلا يتناولونه منفردا دون مزجه بموضوعات أخرى من ذلك قول عبد الله بن يحيى فى الورد وقصر مدته .

تخلت من الورد الأنيق حدائقه ... وبان حميد الأنس والعهد رائقه
أقام كرجع الطرف لم يشف غلة ... ولم يرو مشتاق الجوانح شائقه
فما كان الا لطيف زار مسالما ... فسر ملاقيه ، وساء مفارقه
على الورد من الف التصابى تحية ... وان حرمت الف التصابى علائقه

أما الشعر الشعبى فان الأندلسيين أحدثوا فى الأدب فنا جديدا يضاف الى سائر الفنون الأخرى ، فبعد أن كان الأدب شعرا ونثرا صار لديهم شعرا ونثرا وموشحات ، ولقد صار فن الموشحات له مدارسه التى عنيت به ، وسارت عليه ، فقد سبقوا فيه المشارقة بما يقرب من ثلاثة قرون ـ اذا استثنينا مانسب لابن المعتز من موشحات لم يقم دليل قاطع على نسبتها اليه .

ابن دراج :

ابن دراج القسطلى : أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصى بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج الأندلسى القسطلى ولد فى آخر العقد الخامس من القرن الرابع الهجرى ٣٤٧هـ (١) نزح آباؤه الأقدمون من شمال افريقية ، ودخلوا الأندلس مع الفتح الاسلامى فهو - اذن - من أسرة بربرية صنهاجية ٠

أما نسبته الى الأندلس فذلك راجع الى مولده بها ، فهو أندلسى المولد والنشأة والوفاة ، ولقد وصفه صاحب الذخيرة بقوله « كان لسان الجزيرة شاعرا وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها » (٢) ويقول عنه أبو حيان ٠٠ أبو عمر ابن دراج القسطلى سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين (٣) ٠

أما نسبته الى قسطلة فذلك راجع الى جده الأعلى ، فقد كان جده حاكما لقسطلة وهى تابعة لاقليم « جيان » المغربى ، ذكر ذلك ابن سعيد فى كتابه المغرب فى حلى أهل المغرب أما ماذهب اليه بعض الباحثين من أنه ينتسب الى قسطلة الغرب ، وهى التابعة للبرتغال حاليا فهو يتنافى مع أصله البربرى ، فقد ذكر أنه من أصل بربرى صنهاجى . والبربر جماعة سكنوا شمال افريقيا ، وهم يقيمون بها حتى الآن ،ولهم

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ق ١ م ١ ص٥٩ ، وانظر وفيات الأعيان ٠

(٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ق ١ م ١ ص٦٠ ، جـ ١ ص ١٣٥ تحقيق د٠ احسان عباس ٠

(٣) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ،لابن بسام ق١ م١ ص٦٠

وجودهم فى الجزائر والمغرب ، والمصادر تؤكد أن البربر كان لهم دور كبير فى فتح الأندلس ، ودخولها مع طارق بن زياد الذى ينتمى اليهم ، فقسطلة - اذن - هى قسطلة المغرب وليست قسطلة البرتغال ، وهو مارجحة الدكتور محمود على مكى محقق ديوان ابن دراج القسطلى .

وكتب التراجم لاتذكر شيئا عن حياة ابن دراج الأولى ،فنحن نعلم أن المؤرخين يعنون بدور الشاعر الرئيسى فى حياته ، ويهتمون بمرحلة النضج عنده ، وحياة الطفولة عند الشعراء تكون مجهولة لدى كثير من الناس ، فلا يعلمها الا الأدنون منهم وهؤلاء لايكونون - غالبا - من أهل العلم والتدوين ، والمستتبع لحيـــاة ابن دراج يمكنه الخـروج بنتيجة تعطينا تصورا عن حياته الأولى ، فلقد اتصل شـاعرنا بالمنصور بن أبى عامر رأس الدولة فى قرطبة ، ولايمكن لرجل بسيط أن ينـــال حظوة لدى الأمراء والوزراء الا اذا تزود بالعلم ، ونهل من حيـــاض المعـرفة . وتسلح بالشعر ، وهذا ماجعل الدكتور أحمد هيكل يقـــول عنه « انه نشأ نشأة أدبية فى بلده ، وتزود بثقافة لغوية وتاريخية وأقبل بنـوع خاص على شعر الجاهليين والاسلاميين ، وفتن بنـوع أخص بالاتجـــاه المحافظ الجديد فى الشعر الذى وصل الى قمته فى القرن الرابع الهجرى بزعامة المتنبى فى المشرق وابن هانىء فى المغرب ، وقد تأثر بهما » (٤)

ولعل القارىء لكلام الدكتور هيكـل يدرك أنه مبنى على الفـرض لا على اليقين ، فقد استشف من صلة ابن دراج بالمنصـور أنه لابد أن يكون قد تسلح بدراسة الشعر وخاصة الجـــاهلى منه ، واستشف من منهجه فى الشعر أنه لابد أن يكون قد عكف على شعر المحـــافظين ، أو

---

(٤) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٠٣ ط دار المعارف .

ماسموا بالمحدثين من الشعراء مثل أبى تمام والبحترى والمتنبى ، ولأن الثعالبى يلحق ابن دراج بالمتنبى فى المشرق رأى الدكتور هيكل أن ابن دراج عنى بدراسة شعر المتنبى فى المشرق ، وابن هانىء الأندلسى فى المغرب وتأثر بهما ، فصاحب اليتيمة يقول عن ابن دراج « كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد الشعراء الفحول يجيد ماينظم » (٥)

أما الدكتور محمود على مكى فيقول فى مقدمة الديوان ٠٠ على أننا نستطيع أن نتصور حياة ابن دراج فى مستهل حياته اذا تأملنا الظروف التى كانت الأندلس تعيش فى ظلها فى ذلك الوقت ، فقد ولد ابن دراج فى السنوات الأخيرة من خلافة عبد الرحمن الناصر أول خلفاء بنى أمية - حكم الناصر بين سنتى ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ وقضى فترة تعليمه فى السنوات التى وافقت خلافة الحكم المستنصر - بين سنتى ٣٥٠ ٣٦٦ هـ - وجانبا من خلافة ابنه هشام المؤيد ، ونحن نعرف أن هذه الفترة من حياة الأندلس كانت أزهر عصور التاريخ الاسلامى فى هذه البلاد على الاطلاق (٦) ٠

لقد كانت الأندلس ابان حكم الناصر والمستنصر سوقا رائجه لشتى لوان الفنون ، فعرب الأندلس كانوا يتنافسون فى آخذ حظ وافر من العلم لأن ذلك سبيلا الى الرياسة والوجاهة ، ثم ان الثقافة

---

(٥) الثعالبى - يتمية الدهر جـ ١ ص ١٠٣ ، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٠

(٦) مقدمة ديوان ابن دراج حققه وقدم له الدكتور محمود على مكى طبع على نفقة صاحب السمو العالم الجليل الشيخ على بن عبد الله آل ثانى حفظه الله ط الأولى ١٣٨١ - ١٩٦١ منشورات المكتب الاسلامى بدمشق ٠

العربية الخالصة المتمثلة فى حفظ القرآن الكريم ، ورواية الحديث وطلب الفقه قد جعلت هؤلاء القوم يعبون منها عبا ، فاذا مانشأ وليد فى هذه البيئة فلابد أن يتأثر بها ، فبيئة الأندلس - كما يقول الدكتور حسن جاد « بيئة تهفو الى العلم ، وتفيء الى موارد الأدب ، ويشدو أبناؤها على الثقافة والمعرفة ، وقد انضم اليها بيئة عامة - فى حياة شاعرنا الأدبية - تلك هى قرطبة التى صارت عاصمة البلاد منذ الفتح ، والتى ناهضت بغداد فى شرف العلم ، وزهو الأدب ، واستدراج العلماء ، واستنهاض الشعراء، وعقد مجالس الأدب ، وكثرة دور الكتب ، والغرام بمطارحة الشعر ، والمبادهة به ، والولع بالخروج الى الرياض ، والتلهى بجمالها ، ووصف محاسنها ومجالسها ، ومشاركة المرأة فى تلك المجالس ، وتأديبها بأدب الرجال ، وهو ماحفزهم الى الظهور أمامها بمظهر الكمال فى الذوق والظرف والأدب .

« يضاف الى ذلك روح كانت تسرى فى نفوس الخلفاء من ايثار الأدب والتعويل على العلم ، فاقترنت الوزارة بالأدب ،وكان الوزير كاتبا وشاعرا ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلم من وسائل الوصول الى الوزارة . فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والأدب ، وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزارة فى الدولة ، بل كانت الوزارة وقفا على كل أديب ، ولو لم يكن عربيا أو مسلما » (٧) .

لعلنا نستشف من كلام الدكتور حسن جاد عن ابن زيدون .

---

(٧) د. حسن جاد حسن . ابن زيدون حياته وعصره وأدبه ص٤٨ ط المطبعة المنيرية .

تلك البيئة العامة التى كان ينعم بهـــا أهل الأندلس ، والتى تحفـزهم حفزا الى طلب العلم والمثابرة عليه ، وتدفعهم دفعا الى العب منه عبا ، حتى ينعموا بجاه أو وزارة ، أو يظفروا بسلطان أو امارة ، وتحثهم حثا الى تلمس مصادر الشعر ، والعكـوف على حفظ دواوين الســـابقين ، فتجود قريحتهم بما من شأنه تقريبهم من بلاط الخلفاء ، وانضمامهم الى حواشى الأمراء ، بل ان طبيعة الأندلس قادرة على صقل ملكاتهم ،وتنبيه عواطفهم ، واذكاء مواهبهم ·

واذا كانت بيئة الأندلس وقرطبة هذا شأنها فان ابن دراج نشـــ فى بيئته الأولى نشأة أدبية شعرية ، فبلدة ابن دراج « جيان » ومنطقتها كانت على مايبدو ـ لنا ـ تربة خصبة للشعر والشعراء ، فقد كان منها أول شاعر أندلسى تميز بالأصالة وقوة الشخصية ، ونعنى به يحيى بن الحكم الغزال الذى نبغ فى أيام عبد الرحمن الأوسط خـــلال النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وأما فى القـرن الرابع فلعـل أهمهم شعراء جيان كانوا بنى فرج وهم ثلاثة اخوة أحمد وسعيد وعبد الله أبناء محمد بن فرج ، والى أولهم يرجع فضل تاليف كتـــاب الحدائق الذى عارض به مؤلفه كتاب « الزهرة » لأبى داود الأصفهانى ، وجمع فيه من أشعار الأندلسيين ما أراد أن يظهر به للمشارفة أن الأندلس على حداثة عهدها بالاسلام لاتقل فى هذا ·· الميدان عن أى قطر عربى آخر » (٨)

فى بلاط المنصور بن أبى عامر :

ان حياة العظماء الأولى قد يعمها النسيان ، أو تأتى عليها الأيام أو تنحسر مع بلوغ العظماء فجر العظمة ، فلا تكـاد تذكر أمام انبهـــار

---

(٨) د· محمود على مكى ـ مقدمة ديوان ابن دراج ص ٣٥ المرجع السابق ·

الناس بما يظهرونه من ألوان الذكاء والنجـــابة ، فيرصدون تفوقهم ونبوغهم ، ويبدون اعجابهم بسيرتهم وجهادهم .

هكذا فعل المؤرخون بحياة ابن دراج الأولى ، فلم يعيروها اهتمامهم ولم يولوها عنايتهم ، وانما اهتجوا بحياته فى بـلاط المنصـور بن أبى عامر ، فبعد أن تمرس على الشعر وتدرب على أفانينه ، واشتد سـاعده صنع كما يصنع سائر الشعراء الذين عاشوا فى كنف العظماء ، ونعموا بما يضفونه عليهم من عطاء وتكريم .

يمم ابن دراج وجهه صوب المنصور بن أبى عامر كى ينعم عنـده بما ينعم به سائر الشعراء الذين كانوا يفدون عليه ، ويكللون هامته بأكليل المدح والثناء فيرجعهم الى أهليهم محملين بألوان العطايا والمنح . لقد كان بلاط المنصور أشبه ببلاط سيف الدولة الحمـدانى الذى وفد عليه المتنبى فقال فيه روائع وعاها التاريخ وحفظهـا ديوان شـــعره ، فأغدق عليه سيف الدولة سحائب كرمه ، وكريم عطاياه أموالا بددتها الرياح ، وذهبت بها الأيام .

رصد المؤرخون تلك الواقعة التى حدثت لابن دراج وهو يتحسس خطاه فى بلاط المنصور فهو يعلم أن هذا البلاط ملىء بالحساد والشانئين وغاص بالعلماء والمتـأدبين ، ولابد له ـ والأمر كذلك ـ من عمـل أدبى يبهر السامعين ، ويشد اليه أنظـار الحاضرين فمدح المنصـور بقصيدته التى قال فيها :

أضـــاء لها فجر النهى فنهاها ... عن الدنف المضنى بحر هواها
وضللها صبح جلا ليلة الدجى ... وقد كان يهديهـــا الى دجاها
ويشفع لى منها الى الوصل مفرق ... يهـــل اليه حلهـا وحـــلاها

فيا للشباب الغض النهج برده وبالرياض اللهو جف سقاها
وماهى الا الشمس حلت بمفرقى فأعشى عيون الغانيات سناها

وأخذ ابن دراج يصف تلك الصعاب التى واجهته وهو يتجه نحو المنصور - على عادة الشعراء القدامى الذين كانوا يصفون الراحلة وما يعانونه من متاعب للوصول الى الممدوح حتى قال :

فحطت بمغنى الجود والمجد رحلها وألقت بربع المكرمات عصاها
لدى ملك احدى لواحظ طرفه بعين الرضا حسب المنى وكفاها
هو الحاجب المنصور والملك الذى سعى فتعالى جده فتناهى
سليل الملوك الصيد من سرد حمير توسط فى الأحساب سمك زراها
لباب معاليها وانسان عينها وبدر دياجيها وشمس ضحاها
معظمها منصورها وجوادها وفارسها يوم الوغى وفتاها
ووارث ملك أثلته ملوكها وجامع شملى مجدها وعلاها
نماه لفود الخيل تبع فخرها وأورثه سبى الملوك « سباها »
ذوو الملك والتيجان والغرر التى جدير بها التيجان أن تتباهى(٩)

لقد هزت هذه القصيدة أعطاف المنصور فوجد فى هذا الفتى الناشىء طلبته ، فأجزل له العطاء حتى تجود قريحته بحر الشعر ، وبديع الوصف ، لكن حساده كادوا له عند المنصور واتهموه بالسرقة والانتحال وأرادوا ابعاده عن بلاط المنصور حتى لايفسد عليهم صلتهم به ، وحتى يظفروا هم بخيره ورفده ، فيذكر الحميدى (١٠) « أن المنصور عرض عليه بعض الموضوعات ليقول فيها شعرا ، فارتجل القسطلى شعرا فى

---

(٩) ديوان ابن دراج القسطلى ص ١٠ المصدر السابق .

(١٠) انظر الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٠٣ ، ١٠٤ تحقيق محمد بن تاويد الطنبخى ط السعادة مصر ١٩٥٣م .

كل ما اقترح عليه المنصور من موضوعات فأعطاه المنصور مائة دينار ذهبا ، وضمه الى ديوان الشعراء ، وأجرى عليه الرزق .

ويزداد المنصور حبا لابن دراج ، ويرى ابن دراج بذكائه ذلك فى ملامح المنصور فيعمق ذلك الاحساس لدى ممدوحه ، فيرتجل قصيدة أخرى فى نفس المجلس يقول فيها .

حسبى رضاك من الدهر الذى عتيا وعطف نعماك للحظ الذى انقلبا
يا مالكا أصبحت كفى وما ملكت ومهجتى وحياتى بعض ما وهبا

ثم يذكر ذلك الاتهام الذى وجه اليه ، ويعرض بجسارة وشانئيه، ويتهمهم بالدس والخديعة ، ويعلن لهم أن هذه الشائعات ظلام بدده اشراق النور ، وأن أقوال هؤلاء الوشاة ذهبت هباء فيقول :

ودسسوا لى فى مثنى حبائلهم شنعاء بت بها حران مكتئبا
من بعد ما أحزم الواشون جاحمة كانت ضلوعى وأحشائى لها حطبا
حتى هززت فلا زند القريض كبا فيما لدى ولا سيف البدنة نبا
وأشرقت شاهدات الحق تنشر لى نورا غدت فيه أقوال الوشاة هبا

ثم يقول انه ليس بدعا فى نوعه ، وليس فريدا فى جنسه فان كبار الشعراء قد أصابهم من ذلك ما أصابه ، لقد تربع امرؤ القيس على عرش القريض وعزف الأعشى على قيثاره . وعلى الرغم من ذلك فقد وجه اليهما الحاسدون كثيرا من التهم التى هم منها براء فيقول :

ولست أول من أعيت بدائعه
فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا
ان امرأ القيس فى بعض لمنهم
وفى يديه لواء الشعر — ان ركبا

والشـــعر قـــد آسر الأعشى وقيـــده
دهـرا وقد قيـــل والأعشى اذا شربا
وكيف أظمـــأ وبحـــرى زاخر فطنـا
الى الخيـــال من الضحضاح قد نضيا
فـان نأى الشـــك عنى أوفهـــا أنذا
مهيـــأ لجـلى الخيـــر مرتقبـــا
عبد لنعمـــاك فى كفيه فجـــر هدى
ســـار لمدحك يجلو الشـك والريبـا
ان شـــئت أملى بديـع الشعر أو كتبا
أو شئت خاطب بالمنثـــور أو خطبـا
كروضة الحزن أهدى الوشى منظـرها
والمـــاء والـزهر والأنـــوار والغشبا
أو ســـابق الخيل أعطى الحضر متئدا
والشد والكر والتقـــريب والخببـا (١١)

وهكذا أخذ بن دراج طريقه الى قلب المنصـــور وبـلاطه ، فالحقه بديوان الانشاء وقربه اليه ، لقد أصبح ابن دراج من أكبـــر شـــعراء المنصور ، فقد مدحه بروائع قصائده وسجل أمجـــاده وانتصاراته ، « وعلى أية حال فقد شق شاعرنا الفتى طريقه فى بلاط المنصور الحاجب العامرى ، وأتيحت له الفرصة للانشاد بين يديه ، وكان ذلك ـ وحده ـ كسبا عظيما بالنسبة اليه ، فقد كانت سدة المنصور تزدحم بالشعراء ، وتغص بالنقاد الذين ماوفد عليهم شاعر أو أديب الا تعقبـــوه بالنقـد

---

(١١) ديوان ابن دراج القسطلى ص ٣٦٣ المصدر السابق .

والتجريح ، وقد كان ابن دراج عندئذ فى غضاضة الشباب اذا قسناه بمن كان فى بلاط المنصور من فحول الشعراء ويكفى مع ذلك أنه استطاع أن يلفت اليه أنظار اجميع فأقبلوا يتساءلون : من أين نجم عليهم هذا الشاب الناشىء الذى أتى يزاحم جلة الشعراء الواقفين على باب المنصور واستطاعت السنة السوء أتراه منتحلا لشعر غيره ، متلبسا بغير ثوبه » ..

ثم يقول محقق الديوان « ونحن نعلم كيف كان المنصور على الرغم من كثرة غزواته ، واتصال جهاده واضطلاعه بأعباء الحكم - محبا للعلم مؤثرا الأدب مفرطا فى اكرام من ينتسب اليهما ، ويفد عليه متوسلا اليهما بحسب حظه منهما ، وطلبه لهما ، ومشاركته فيهما واذا كان كما يقول ابن بسام « غير ذى تحرير ، ولايصر بالنقد مشهور » وهو حكم يبدو لنا بالغ القسوة ، فانه لم يكن يسمح لشاعر بالمثول بين صفوف حاشيته من أهل الأدب الا بعد أن يجرى عليه اختبارا قاسيا شديدا » (١٢) .

المنصور بن أبى عامر :

والحديث عن ابن دراج القسطلى يتطلب الحديث عن المنصور بن أبى عامر ودوره فى اثراء النهضة الأدبية والشعرية بالأندلس ، لأن معرفة هذا الجانب ضرورية لفهم شعر ابن دراج فهو الحاجب المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر محمد بن الوليد بن

---

(١٢) د. محمود على مكى مقدمة ديوان ابن دراج ص ٤١ المصدر السابق .

يزيد بن عبد الملك المعافرى (١٣) فهو من قبيلة يمنية الأصل ينسب الى قبيلة معافر اليمنية ، وقد كان جده الأعلى أحد الجنود العرب الداخلين الى الأندلس ابان الفتح الاسلامى لها على يد طارق بن زياد ، وقد ذكر المؤرخون له أن جده أظهر كفاءة فائقة مما كان سببا فى منحه اقطاعات جليلة فى جنوب الأندلس ، واستمر أبناؤه من بعده فبرز منهم القضاة والعلمـــاء ، والولاة ، وكان والده عبد الله من رجال العلـــم والدين ، ووالدته كانت من أسرة عربية معروفة بقرطبة ، فحاز الشرف بطرفيه : حتى قال فيه ابن دراج

تلافت عليه من تميم ويعـرب شموس تلألأ فى العـلا ويدور
من الحمير بين الذين أكفهـم سحائب تهمى بالندى وبحـور

عاش المنصور بن أبى عامر فترة ازدهار الحكم الأموى فى الأندلس فقد ولد سنة ٣٢٨هـ ورحل الى قرطبة يطلب العلم بها ، وكانت قرطبة حينئذ مقرا للحكم الأموى الذى دام زهاء ثلاثة قرون كان القـرن الرابع الهجرى على قمتها ، واستطاع الخليفة الناصر والمستنصر أن يقيمـا دولة قوية تعتمد على العلم والمعرفة يســـندها جيش قوى يحمى ثغورها ، ويدافع عن حياضها ، لقد أسهم حكام الأمويين فى الأندلس فى ارســاء نهضة علمية وثقافية ، وأخذت بخط وافر من العلوم والمعارف ، حتى انها بذت ـ أحيانا ـ بغداد فى نهضتها وحضارتها ، أو اننا نقـول ان كلا من الأندلس وبلاد المشرق قد تمثلت روح الاســـلام الذى يدعو الى

---

(١٣) الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص٥٦ تحقيق د. احســـان عباس بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٩م وانظـر نفح الطيب جـ ١ ص ٣٩٦ تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٨ ، وانظر المغـرب فى حلى أهل المغرب جـ ١ ص ١٩٩ تحقيق د. شوقى ضيف دار المعارف .

العلم ، ويحث على طلب المعرفة ، فكان ذلك الرصيد الضخم من المعارف الذى مازلنا حتى اليوم نعيش عالة عليه .

وكان السبب المباشر فى نهضة الأندلس هؤلاء العلماء الذين رحلوا منها الى الشرق يقطفون من ثماره ، وينهلون من بحاره ، لقد كان هؤلاء العلماء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم ، ثم يعودون ، ليشيعوا ماتعلموه بين أهليهم ، وفى أرجاء وطنهم .

ولم تكن عملية التأثر قاصرة على العلماء والأدباء الذين رحلوا الى المشرق ، فقد ذهب جمع غفير من العلماء والأدباء ورجال الفن الى الأندلس رغبة منهم فى الاقامة بها ، والحصول على رفد أمرائها .

والقارىء للشعر الأندلسى فى الفترة الأولى يجده لايختلف فى شكله أو مضمونه عن شعر فحول شعراء المشرق من أمثال أبى تمام والبحترى ، وهذا ماجعل الدكتور شوقى ضيف يقول : « ونحن لانبالغ اذا قلنا بأن شخصية الأندلس فى الأدب العربى ليست من القوة كما ينبغى ، وخاصة اذاء أهملنا جانب البيئة ، فمما لاشك فيه أن هذا الجانب أثر أثرا واضحا فى طبيعة الأدب الأندلس شعره ونثره ، غير أننا اذا تركنا هذا الجانب لم نكد نجد شيئا آخر ، فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق نحو تقليد المشارقة بكل مافيه ، وحتى شعر الطبيعة عندهم لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة ، أما بعد ذلك فصورته كله بما فيه من أفكاروأخيلة وأساليب هى الصورة المشرقية ، ونحن لانغلو اذا قلنا ان الأدب الأندلسى مدين فى نهضته للتراث العربى العام ، وهو تراث كان مشتركا بين الأقاليم العربية كلها لايختص به اقليم دون اقليم وكأنى بالأندلس لم تجد من الوقت ماتتعمق به الثقافة الرومانية التى

تثقفتها قديما على الرغم من اتخـــاذها اللاتينية ، فلما جاء العرب لـم يجدوها تحرز تراثا لاتينيا واســـعا تستطيع أن تحتفظ به لنفســها ، وتدمجه فى التراث العربى العام ، وما أرانى أبعد اذا قلت ان الأندلس كانت تستمد نهضتها وحياتها من بغداد شأنها فى ذلك شـأن الأقاليم الأخرى » (١٤) .

وقد نكون ظالمين للشعر الأندلسى ان نحن وافقنا الدكتور شوقى ضيف على تلك النتائج التى خرج بها من دراسته للشعر فى الأندلس ، ذلك أن الشعر العربى وان كان وعاء عاما استخدمه جميـــع المتحدثين باللغة العربية الا أن كل اقليـم طبعه بطـابعه المميز ، وسـمه بميسمه الخـــاص ، والأندلس صنعت أكثر من ذلك اذ أن شـــعرها كانت له خصائص تختلف فى كثير عن خصائص الشعر العربى التى تفردت بها عن سائر المناطق .

ولكن الأمـر الذى يجب أن ننبه اليه هو أن شـــخصية الشـــعر الأندلسى لم تتضح معالمها ، ولم تتكشف اتجاهاتها الا فى فترة متـأخرة حين استقر للأمويين الملك وثبتوا دعائم دولتهم ، واتخذوا لهم بلاطا فى قرطبة يشبه بلاط الرشيد والمأمون فى بغـــداد عندئذ أخذ الشـــعراء والكتاب يطرقون بابهم ، ويغشون جنابهم ، وقد كان ذلك واضحا ابان القرن الرابع الهجرى .

كذلك فنحن لانوافق الدكتور أحمد هيكل الذى قـرر فى دراسته

---

(١٤) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤١٢ طبعة دار المعارف .

للأدب الأندلس أن التجديد بدأ فى شعر الأندلس مع بداية التجديد لدى العباسيين ، ذلك أن ظهور الخمريات فى الشعر الأندلس والطبعيات والزهديات كان تقليدا للشعراء العباسيين الذين ثاروا على المقدمة الطللية ، فبدأوا قصائدهم بوصف الخمر ، والقارىء لكل الأشعار التى قيلت فى الفترة المبكرة يرى فيها أثرا واضحا للتقليد ، فالشعراء مازالوا يرتبطون ارتباطا وثيقا بالشرق ، ولم تؤثر فيهم تلك البيئة الجديدة التى نزحوا اليها ، ونحن لن نستطيع توجيه اللوم لهم على ذلك فالانسان لا يتأثر ببيئته الجديدة لاول وهلة ، وانما يأتى التأثير بعد فترة طويلة ، وهذا ماحدث للأدب الأندلسى .

وعلى أية حال فقد عاش المنصور بن أبى عامر فترة ازدهار الأدب الأندلسى ، أو قل فترة ارتقاء العقلية الأندلسية وبلورتها ، واستطاع أن يتخذ له بلاطا مشابها لبلاط سيف الدولة الحمدانى ، أو لبلاط البرامكة ، بل انه نافس الخليفة سلطانه فأقام لنفسه قصرا ينزل فيه ، فبنى مدينة الزاهرة على نهر قرطبة على غرار مدينة الزاهرة التى بناها الحاكم المستنصر ، وبالغ فى رفع أسوارها ، وحشد الصناع وجلب اليها الآلات وانتقل اليها عام ٣٧٠ هـ بأسلحته وأمواله وعلمائه ، واتخذ فيها الدواوين والأعمال ، وتوسع مع الأيام فى تشييد بنيتها ، وكتب أن يحمل اليها الجبايات وأقام الشرطة على بابها فقصدها أصحاب الولايات وأصحاب الحاجات ، وهكذا عطل قصر الخليفة بعد أن أشاع أن الخليفة فوض اليه النظر فى أمر الملك وتخلى لعبادة ربه » (١٥) .

« كان المنصور بن أبى عامر ذا عقل ورأى وشجاعة وبصر بالحروب ، وقد حدثه طموحه بالتغلب على هشام ، فاتخذ الدهاء طريقا الى ذلك ،

---

(١٥) انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٤٠٢ المصدر السابق .

حتى غلب على هشام ، ومنع الوزراء من الوصول اليه الا فى النادر من الأيام يسلمون عليه وينصرفون » (١٦) .

وكان الرجل محبا للجهاد كثير الغزوات حتى قيل ان غزواته بلغت اثنتين وخمسين غزوة (١٧) وأنه كان يغزو كل عام مرتين مرة فى الشتاء وأخرى فى الصيف ، ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم يهزم قط فى حرب شهدها ، أو يعود بدون غنائم وسلاب ، وكان جوادا كثير البذل وله فى ذلك قصص كثيرة .

« ولقد كان المنصور بن أبى عامر أديبا شاعرا محبا للعلوم مؤثرا للأدب ، وكان يبالغ فى اكرام من يقبل عليه من العلماء والأدباء والشعراء ، وجوده مع أبى العلاء صاعد اللغوى البغدادى حين قدم عليه سنة ٣٨٠ هـ مشهور ، ومن ذلك أنه اتخذ له مرة قميصا من رقاع الخرائط التى كانت تصل اليه فيها الأموال منه ، وجعل ذلك حيلة الى بلوغ الغاية من كرمه ، ولقد ألف له أبو العلاء صاعد كتبا غريبة فى السياسة والأدب على غرار كليلة ودمنة »(١٨) .

عاش المنصور بن أبى عامر حياة حافلة بالجهاد والكفاح فى جانب وزاخرة بمجالس العلماء والشعراء والاغداق عليهم من جانب آخر ، وقد اشتد على المنصور علته التى اختلف الأطباء فى تشخيصها ، فلقى ربه فى شهر صفر ، وقيل فى شهر رمضان سنة ٣٩٢ هـ ودفن بمدينة سالم فى أقصى شرق الأندلس ، وذلك عند منصرفه من بعض غزواته ، وقد دام

---

(١٦) د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ٨٦ ط دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧:٦

(١٧) انظر فتح الطيب جـ ١ ص ٤٠٢ المصدر السابق .

(١٨) د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ٨٨

ملكه سنا وعشرين سنة كلها جهاد وكفاح من أجل الاسلام والمسلمين » (١٩) .

ولقد أوصى المنصور ابنه بقوله « يابنى لست تجد أنصح لك منى تعدين مشورتى فقد جردت له رأيى فاجعلها مثالا بين يديك ، قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وخلفت جباية تزيد على ماينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الانفاق ، ولا تقبض لظلمة العمال فيختل أمرك سريعا ... والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن الى لين الجنية . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه والآفة ممن يتولاه ، ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأصحابك شيء بقيكم الحنث فى يمين البيعة الا بما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه فانى أرجو أنى واياك منه فى سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة » (٢٠) .

ولعل القارىء لهذه الوصية يرى تحامل ابن بسام عليه عندما قال « غير ذى تحرير ولا بصر بالنقد مشهور » فان الوصية تنم عن سعة اطلاع ودقة بيان .

واذا أردنا أن نتعرف على دور الشعر فى بلاط المنصور فعلينا أن نرجع الى القرن الرابع الهجرى لنتبين ملامح النهضة الشعرية والأدبية

---

(١٩) انظر فتح الطيب جـ ١ ص ٣٧٣، - ٣٧٦ المصدر السابق .
(٢٠) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٧٦ - ٧٧ المصدر السابق .

ابان حكم الأمويين ، ولعلنا لانبالغ اذا قلنا ان ارتقاء الشعر فى هذ القرن ، وعناية الحكام به ، وحفاوتهم بالشعراء والأدباء جعل الأندلس تنعم بنخبة كبيرة من هؤلاء الشعراء فابن هانىء الأندلسى وابن خفاجة وابن شهيد وابن دراج ومن بعدهم ابن زيدون ، وكثير غيرهم من أعلام الشعر والأدب .

ولقد كان المنصور كما أسلفت حاجبا أو وزير للمستنصر ، ثم لابنه هشام الذى تولى الخلافة بعد أبيه ولما يبلغ العاشرة من عمره ، فكان لابد والأمر كذلك من اقامة بلاط خاص به يستقبل فيه الأدباء والشعراء والعلماء ، وقد كان المنصور بطبيعته محبا للعلم والأدب فقد كان له مجلس علم يضم كبار علماء عصره ، وكان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضرها هو مدة اقامته بقرطبة ، وكتب التراجم تذكره ذلك ، وتذكر أيضا أنه استقبل اللغوى المشرقى الأديب صاعدا البغدادى الذى وفد الى الأندلس ابان حجابته (٢١) ، وهو فى ذلك وصاعد البغدادى هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى البغدادى أبو العلاء عالم بالأدب واللغة قصاصا من الكتاب الشعراء ، وله معرفة بالموسيقى والغناء ولد بالموصل ونشأ ببغداد وانتقل الى الأندلس يتشبه بالخليفة الناصر الذى استقبل أبا على القالى صاحب الأمالى الذى قيل انه أملاه بالأندلس ، فاذا كان الناصر قد استقبل العالم اللغوى الأديب أبو على القالى فانه لايقل عنه حبا للعلم واللغة فى استقباله « صاحب البغدادى » .

ونحن نلاحظ أن سائر الحكام الذين كانوا يفتحون قصورهم للشعراء ويجزلون لهم عظيم العطاء كانوا يصنعون ذلك من أجل الاشادة

---

(٢١) الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٨ ـ ٩ المصدر السابق .

بأمجادهم ، وتسجيل مفاخرهم ، ولم يكن استقبالهم للشعراء نتيجة حبهم للشعر فحسب ، والمتتبع للتاريخ العربى يرى ذلك واضحا جليا ، فعمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة ، وقالوا له ان الشعراء بالباب قال : مالى وللشعراء فهو لايريد افتخارا بعمل يعلمه من أجل الرعية . وانما يترك ذلك لله سبحانه وتعالى ، أما سائر الحكام فانهم بحاجة الى أبواق تذيع ما يقدمون به من انتصارات ، وتسجل مايحدث لهم من أمجاد صنع ذلك أبو تمام والبحترى والمتنبى الذى كان يسير مع سيف الدولة فيسجل انتصاراته على الروم ، وديوان المتنبى حافل بذلك ، والمنصور واحد من أولئك الحكام الذين أرادوا من الشعراء أن يكونوا ألسنة دعاية لهم ، فوقف الشعراء والأدباء ببابه ، ووفدوا عليه من شتى البلاد يمدحونه فيثيبهم على مدحهم ، وقد كان الرجل جوادا مع هؤلاء الشعراء والا لما وجدنا هذه الكثرة الطائرة التى تزاحمت على بابه ، وقد ذكرت كتب التراجم (٢٢) أمثلة كثيرة على كرمه ووجوده فقد قيل ان المنصور أراد ختن أولاده فختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبى ، ومن أولاد الضعفاء عدد لاينحصر ، فبلغت النفقة عليهم فى هذا الاعذار خمسمائة ألف دينار .

والمحلل لهـــذا الخبر يتبين له أن النفقة لم تكن لمن ختنوا هؤلاء الأولاد ، وانما كانت لتلك المآدب التى أقيمت ، والحفلات التى كانت حافزة لهمم الشعراء أن يقولوا فيها روائع شعرهم ، وأن تضاف تلك الروائع الى أمجاد المنصور العسكرية .

---

(٢٢) انظر نفح الطيب جـ ١ ص ٥٩٦ المصدر السابق .

ولقد قيل ان المنصور صحب فى احدى غزواته أربعين (٢٣) شاعرا من طبقات مختلفة غير أن كتب التراجم لم تذكر لنا أسماءهم وأشعارهم . وطرفا من أخبارهم غير أنها وعت لنا أسماء الأعلام منهم كابن دراج القسطلى والرمادى ، والوزير الحاجب المصحفى عبد الملك الجزيرى ، والأديب اللغوى المشرقى صاعد البغدادى » .

لقد نهض الأدب فى زمن المنصور حتى صار حلية الشباب وزينة المنشأة الأندلسية .

نظرة فى ديوان ابن دراج :

بعد هذه اللمحة التى ألمحناها عن حياة المنصور بن أبى عامر مخدوم ابن دراج كان علينا أن نعود أدراجنا نحو ابن دراج ننظر فى ديوان شعره : أغراضه وخصائصه الفنية ، فهى المهمة الأولى لهذا البحث ، وقد عرفنا أن ابن دراج أصبح شاعر المنصور بن أبى عامر يمدحه ، ويسجل انتصاراته ، وظل كذلك حتى وفاة المنصور ، بل انه استمر فى خدمة ابنه المظفر عبد الملك حتى نشبت الفتنة ، ودالت دولة بنى أمية ، وكان ابن دراج صاحب خلق ودين لايتتبع سوءات الناس جادا حساسا ، وقد انطبع كل ذلك على شعره الذى يتقلب فيه بين المدح والرثاء والوصف ، أما الهجاء فقد قل فى ديوانه لأنه ابتعد عما يغضبه أو يغضب الآخرين منه اللهم الا ما كان من لوم أولئك القوم الذين رموه بالانتحال والسرقة فى أول عهده ببلاط المنصور بن أبى عامر .

وقصائد المدح عند ابن دراج تسير فى ثلاثة اتجاهات :

المقدمة وقد سار فيها على عادة الشعراء القدامى الذين بدأوا

---

(٢٣) د. أحمد هيكل . الأدب الأندلسى ص ٢٨٢ المرجع السابق .

قصائدهم بالغزل ، أو بوصف الراحلة ، يقول ابن دراج فى افتتاحية قصيدته التى يعارض بها قصيدة أبى نواس :

أجـــارة بيتينـــا أبوك غيـــور

وميسور ما يرجى لديك عســـير (٢٤)

يقول :

دعى عزمات المستضـــام تســـير

فتنجد فى عرض الفـــلا وتغور

لعل بما أشـــجاك من لوعة النوى

يعـــز ذليل أو يفك أســـير

ألم تعلمى أن الثـــواء هو النـــوى

وأن بيوت العـــاجزين قبـــور (٢٥)

فهو يذكرنا بعروة بن الورد الذى لامته زوجة عندما أراد السعى وراء الغنى فقال لها ان المجتمع لايعترى بالفقير ، فهو يحصى عليه أخطاءه وبلاته فقال :

دعينى للغنى أســـعى فانى

رأيت الناس شرهم الفقير

وأبعـــدهم وأهونهم عليه

وان أمسى له حسب وخير

---

(٢٤) ديوان أبى نواس ص ٤١٧ برواية الصولى تحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثى ، دار الرسالة للطباعة ١٩٨٠

(٢٥) ديوان ابن دراج القسطلى ص ١٣ ـ ١٤ تحقيق محمود على مكى المصدر السابق ، الثواء : الاقامة . النوى : الهلاك .

ويقصـــيه النـدى وتزدريه
حليلته وينهـــره الصـــغير
ويلفى ذو الغنى وله جـــلال
يكاد فؤاد صـــاحبه يطير
قليـــل ذنبـــه والذنب جم
ولكن للغنى رب غفـــور (٢٦)

فهو يرفض الحياة الخاملة ، ويطلب المغـــامرة ، ثم هو يواسى زوجه بقوله لها لعل آلامك التى تعانيها من لوعة الفراق ، وألم البعـد يخففها ما نجنيه من ورائها ، بل لعلنا نخفف بما نحصل عليه من خير آلام المحرومين ، فنبدل ذلة قومنا عزا ، وفقرهم غنى ، ان الاقامة فى مكان واحد هى الهلاك بعينه ، ان العاجزين لايقيمون الا فى قبور تضم أجسادهم ، أو بيوت شبيهة بالقبور فى خرابها وظلمتها .

ويستمر ابن دراج فى الحديث عن زوجه فيعتذر لها ، أو بالأحرى يسجل آلامها النفسية ساعة الوداع فيقول :

ولمـــا تدانت للوداع وقد هفا
بصـــــدرى منهـــا أنة وزفير
تناشـــدنى عهد المودة والهـــوى
وفى المهد مبغوم النداء صـــغير
عيبى بمرجوع الخطاب والهـــوى
بموقـــع أهـــواء النفوس خبير

---

(٢٦) ديوان عروة بن الورد ص ٢٤ ط دار صادر ، بيروت .

تبوأ ممنوع القلوب ومهـــدت
له أذرع محفـــوفة ونحـــور
فكل مفـداة الترائب موضـــع
وكل محيـــاة المحاسن ظـير
عصيت شـفيع النفس فيه وقادنى
رواح لدأب السرى وبكـــور
وطار جناح البين بى وهفت بهـــا
جوانح من ذعر الفـــراق تطير
لئن ودعت منى غيـــورا فاننى
على عز متى من شجوها لغيور (٢٧)

لقد نقل لنا ابن دراج لحظة الوداع ، وصورها تصويرا ينم عن قدرة فنية بارعة استمع الى أنات صدر زوجه ، وسرعة أنفاسها المتتابعة، وهى تناشده عهد المودة والهوى أن يرجع عما اعتزمه ، وأن يقيم الى جوارها يرعى أولاده ، وخاصة أن فيهم طفلا صغيرا هو بحاجة الى عطفه ورعايته ، ثم يصور لنا محاولة اثنائها اياه عما اعتزمه ، فهى تضع بين يديها طفلا صغيرا لايستطيع الكلام ، ولكن نظراته اليهما تنم على أنه خبير بأهواء النفوس ، لقد تبوأ هذا الطفل مكانا لايتبوأه غيره ، فهذه الرعاية التى حظى بها ، وتلك الأيدى التى أحاطت به ، والصدور التى حملته ، والمرضعات التى عنيت به كل ذلك ألا يكون جـــديرا بحبك وحنانك ، وبعطفك ورعايتك لكنه ازاء هذا الأمر الذى اعتزمه لايستجيب لتوسلاتها • لقد انطلق الى غايته لايلوى على شىء ، ولكنه فى الوقت نفسه يكاد يتمزق حسرة والما على فراقها ، انه ليس أقل منها شجوا •

---

(٢٧) ديوان ابن دراج القسطلى من ص ١٣ ـ ١٤ المصدر السابق•

وهنا يجد نفسه بحاجة الى ذكر ما تجشمه من مخاطر حتى وصل الى بلاط المنصور ، وهو الاتجاه الثانى ، وهى صورة ماخوذة من الشعر القديم - أيضا - فلئن كان الشاعر الجاهلى وصف ناقته التى ركبها للوصول الى ممدوحه ، وما عاناه واياها من مشاق وأخطار فان ابن دراج وصف تلك الأخطار التى واجهته ، والمفازات التى قطعها حتى وصل الى بلاد الأندلس ، وها هو يخاطب زوجه فيقول :

ولو شـــاهدتنى والهواجر تلتظى
على ورقـــراق السراب يمـــور
أسلط حر الهاجرات اذا سطا
على حر وجهى والأصيل هجير
وأستنشق النكبـاء وهى لوافح
وأستوطىء الرمضـــاء وهى تفور
وللموت فى عين الجبـان تلون
وللذعر فى سمع الجرىء صفير
يبان لهـــا أنى من الموت جازع
وأنى على مض الحظوب صبور
أمـير على غول التنـائف ما له
اذا ربع الا المشـــرفى وزير
ولو بصرت بى والسرى جل عزمتى
وجرس لجنـــان الفلاة سـمير
وأعتسف المومأة فى غسق الدجى
وللأســد فى غيل الغياض زئير
وقد حوم ت زهرة النجوم كأنها
كواكب فى خضر الحدائق حور

ودارت نجـوم القطب حتى كأنها

كؤوس مهـــا والىٰ بهن مدير

وقد خيلت طرق المجرة أنهـــا

على مفـرق الليـل البهيم قتـير

وثاقب عزمى والظـــلام مروع

وقد غض أجفان النجوم فتور

لقد أيقنت أن المنى طوع همتى

وأنى بعطف العـــامرى جـدير (٢٨)

هذه صورة أخرى نقلها ابن دراج الى سامعيه كى يعطفوا عليه ، أو يخففوا من هجومهم ، أو يستدر بها عطف المنصور بن أبى عامر ، أو قل انه أراد بها التخفيف عن آلام الفراق التى أصابت زوجه ساعة رحيله ، أو بعد غيابه عنها ، فهو يقول لها : ان المعاناة الرهيبة التى عاناها جديرة بأن تجعلك تخففين من أشجانك ، وتعلمين أن الخطب جلل ، وأن الأمر جد خطير فما أنت فاعلة لو أنك كنت معى وأنا أسير فى شدة الهاجرة ، انها نار تلظى ، لقد بدا لى السراب وفراقا ، وأنا أسلط حر الهاجرات على حـــر وجهى ، وأقابل زفرات الهجير ، فهو يستنشق الرياح اللوافح ، ويستوطىء الرمضاء ، ان الذين يسيرون فى مثل هذه الظروف عليهم أن يتصوروا الموت وهو يتلون لهم كما تتلون الحرباء ، ولابد أن يحسوا مرارة الذعر ، أو أصواته تسد آذانهم وتصك مسامعهم ، لو أنك تصورت ذلك لعلمت أننى لم أكن مختارا لفراقك والبعد عنك وانمـــا دفعنى الى ارتكاب الأهوال ، وتحمل الصعاب ما نعانيه من فقر وحرمان .

---

(٢٨) ديوان ابن دراج المصدر السابق .

ويستمر ابن دراج يصف ما صادفه من مخاطر حتى يخلص الى مدح المنصور بن أبى عامر بقوله :

لقد أيقنت أن المنى طوع همتى وأنى بعطف العامرى جدير

وهذا هو الاتجاه الثالث فى قصيدة ابن دراج ، وأقل فى قصائده التى مدح بها المنصور فكلها تسير على نفس النهج يقول فى مدح المنصور :

مجير الهـدى والدين من كل ملحد
وليس عليـه للضـلال مجير
تلاقت عليه من تميم ويعـرب
شموس تلاقى فى العـلا ويدور
هم يستغلون الحيـاة لراغب
ويستصغرون الخطب وهو كبير
ولما توافروا للسـلام ورفعت
عن الشمس فى أفق الشروق ستور
وقد قام من زرق الأسـنة دونهـا
صفوف ومن بيض السيوف سطور
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزاهـا
وآيات صـنع الله كيف تنير
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس
وقام بعبء الراسـيات سرير
فجاءوا عجـالا والقلوب خوافق
وولوا بطاء والنواظر صـور
يقولون والاجلال يخرس ألسنا
وحارت عيون ملؤها وصـدور

لقد حاط أعلام الهـدى بك حائط

وقدر فيك المكرمـات قـدير (٢٩)

فهو يمدح المنصور بأحب مايمدح به قائد أو عظيم : انه مجير الهدى والدين من كل ملحد فهو قائم على شئون الملك يحمى ساحته من أن تمس وذلك بجهاده وحروبه ضد الفرنجة ، وهو قائم على شئون الدين بحمية من كل ملحد وخارج ، ولايستطيع أحد أن يجيره من محاربة الضلال ، وكأنه لمس المعنى الذى لمسه خليفة رسول الله : الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه . فهو يجير الدين من كل خارج عليه ، وليس عليه مجير للضلال ، فهو يقاوم الضلال ، ويضرب على أيدى الخارجين على تعاليم الدين .

ثم يذكر لنا صورة لممدوحه ، وقد تجمع الناس عليه ، وأراد القوم من تميم ويعرب أن يستغلوا نفوذه لصالحهم انهم يريدون منه أن يحيا حياتهم ، لكنه بعيد عن ذلك ، فقد رغب عن الحياة ، فهانت عليه الدنيا وود لوأن المنية عاجلته وهو يجاهد فى سبيل الله ، ومن هنا فقد كان عظيما فى نظر الجميع ، لقد تمثلت عظمته يوم أن أتى القوم للسلام عليه فخرج عليهم يشع ضياء ، ويعم المكان نورا ، انها الشمس التى ما ان تظهر حتى تتبدد الظلمات ، وتغيب الأقمار ، وزيادة فى تعظيم ممدوحه فقد جعله شمسا حقيقية لكنها تحيط بها اسنة الرماح ، وتلتف حولها بيض السيوف ، انها هالة عظيمة صنعتها طاعة الرحمن ، فان المنصور عندما أطاع ربه اعتز بهذه الطاعة فزاده الله اشراقا ونورا ، لقد تحكم المنصور فى البر والبحر ، وأحاط بجميع أطراف مملكته ، وعندما رأى الناس ذلك أسرعوا اليه يلبون أمره ، ويطيعون حكمه ء انهم أتوا اليه

---

(٢٩) ديوان ابن دراج المصدر السابق .

كى يروا هذه العظمة ، ويستيقنوا من قوة المنصور نرجوا وألسنتهم لاتكاد تبين . لقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ولسان حالهم يقول :

لقد حاط أعلام الهدى بك حائط وقد رفيك المكرمات قدير

ولعل هذا المدح قد أعجب المنصور ، فهو ليس مدحا بكرم الأحساب والأنساب كما صنع فى قصيدته الأولى التى قالها يوم أن قدم على المنصور ، وانما هو مدح ينم عن عمق وبصيرة بما للممدوح من مكرمات انه شبيه بمدح عبد الله بن قيس الرقيات لمصعب بن الزبير عندما قال فيه .

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عز ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

وهذا المدح هو الذى يحبه الملوك والعظماء ، لأنه يخلد مآثرهم ويرفع بين الأنام شأنهم لكننا نجده أحيانا يتخذ طريقا أخرى للمدح : فقد أشيع أن الخليفة هشام بن المستنصر أراد أن يتفرغ للعبادة فى شهر رمضان : فقال قصيدة يمدح فيها الخليفة ، ويصف روضة سوسن فى شهر شعبان :

جهز لنا فى الأرض غزوة محتسب

واندب اليها من يساعد وانتدب

واحمل على خيل الهوى شيم الصبا

واعقد لجيش اللهو ألوية الطرب

واهتف بأجناد السرور وقد بها

نحو الرياض وأنت أكرم من ركب

جيشـــا تكـــون طبـــوله عيـــدانه

وقرونه النـــايات تســـعدها القصب

واهـــزز رمـــاحا من تبـــاشير المنى

واســـلل ســـيوفا من معتقة العنب

وانصـــب مجانيقـــا من النيـــم التى

أحجـــارهن من الرواظـــم والنخـــب

شرقاتهـــا من فضـــة وحمـــاتهـــا

حـــول الأمير لهم ســـيوف من ذهب

متـــرقبين لأمـــره وقـــد ارتقـــى

خلل البنـــاء ومد صـــفحة مـــرتقب

كامير « لـــونه » قد تطلـــع اذ دنا

عبـــد المليـــك اليـــه فى جيش لجب

فلئن غنمت هنـــاك أمثـــال الدمى

فهنا بيـــوت المســـلك فاغنم وانتهب

تحفـــا لشـــعبان جـــلا لك وجهـــه

عوضـــا من الورد الذى أهـــدى رجب

واســـتوف بهجتهـــا وطيب نسيمها

فاذا دنا رمضـــان فاســـجد واقترب

وصـــل الجهـــاد الى الصيام بعـــزمة

من ثـــائـــر يـــرضى الاله اذا غضب

فالنصر مضمـــون على بـــر الهـــدى

وعـــواقب الـــراحات أثمـــار التعب

وارفـــع رغـائب مانـــويت الى الذى
مـــازلت ترفعهـــا اليـه فلـــم تخب
حتى تثـــوب وقد نظمت فـــلا نـدا
فـــوق المنـــابر لا تغيرها الحقـب
بجواهر من فخـــر يومك فى العـدى
ينأى بها فى الدهر تيجـــان العـرب
فتح تكـــاد ســـطوره من نـــورها
تبـــدو فتقـرأ خلف طيـــات الكتب
واقبـــل هدية عبـــدك الراجى الذى
أهـدى اليك الدر من بحـــر الأدب (٣٠)

فالقارىء لهذه القصيدة يرى قدرة ابن دراج الفائقة على الوصف، فقد مزج وصف المعركة بوصف ليلة شراب ، فجاءت المقدمة تحمل كل هامن شأنه امتاع النفس واسعاد القلب ، ولكن فى صـــورة معـــركة عسكرية بدأها بقوله : هيىء لنا فى الأرض غزوة نحتسب أجرها عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن البيت الثانى يناقض ماقاله فى البيت الأول حيث قال : واعقد لجيش اللهو أعلام الطـــرب انه جيش لهو ، وليس جيش غزو ويحتسب أجره عند الله ـ ســـبحانه وتعالى ـ بل انه فى الشطر الأول من البيت الثانى يقول : عليك أن تحمل كل متعة وبهجة على خيل الهوى ، وهذا أمـر يدعو الى التعجب ويســنمر ابن دراج فى وصف مجلس الأنس ، فجنود هذا الجيش جنـــود السرور ، وليســوا جنود العبور ، وقيادتها نحو الرياض لانحو الثغـور ، انه جيش لايدق طبول المعارك ، وانما يؤدى نغمات السعادة والحبور ، فطبوله عيدانه.

---

(٣٠) ديوان ابن دراج القسطلى من ص٣٥ ـ ٣٧ المصدر السابق.

وقرونه النايات ، ورماحه من تباشير المنى ، وسيوفه لاتسل من جرابها ، وانما تسل من معنقة العنب .

والقصيدة كلها تسير على هذه الوتيرة ، وسيأتى دورها عند حديثنا عن قدرة ابن دراج الفنية لكن الذى يجب أن ينتبه له القارىء هو أن هشاما ليس من قواد الجيش ورواد المعارك ، وانما أشيع عنه أنه من النساك ، فلعله أراد لمس هذا المعنى ، أو لعله مدح بما يشبه الذم ، فكأنه أراد أن يقول له : ان دورك محصور فى اللهو والطرب فى غير رمضان ، وفى العبادة فى رمضان فدع المعارك الحربية لأهلها فهذا هو المنصور بن أبى عامر يكفيك هذا الشرف ، ويتولى عنك قيادة الجيش فى معارك عسكرية يخوض غمارها ، ويصطلى بنارها ، أما أنت أيها الخليفة فلك دور آخر .

نعود مرة أخرى الى افتتاحيات ابن دراج لنرى منهجه فيها ، فقد استطاع بمقدماته أن يبذ أقرانه ، وأن يتفوق على خصومه ، فقد طور الافتتاحيات التقليدية ، أوقل تصرف فيها بذكاء فهاهى ذى أول قصائده التى قالها فى مدح المنصور بن أبى عامر يقول فى مقدمتها :

أضاء لها فجر النهى فنهاها
عن الدنف المضنى بحر هواها
وضللها صبح حلا ليلة الدجى
وقد كان يهديها الى دجاها
ويشفع لى منها الى الوصل مفرق
يهل اليه حليها وحلاها
فيا للشباب الغض أنهج برده
وبالرياض اللهو حف سقاها

وماهى الا الشمس حلت بمفـرقى

فأعشى عيون الغانيـات سـناها (٣١)

يصف حال زوجه عند رحيله الى المنصـــور بن أبى عامر ، لكنه يعطينا تصورا لحال زوجه ، وقد اختلطت عليها الأمور ساعة الوداع ، لأن الخطب جلل ، والفراق صعب ، فهى تعلم أنه ما فارقها عن قلى لها ، وأنه ماتركها بغضا أو كرها ، لكن هذه الساعات تختلط فيها الأمور ، وتعقد الأحداث حتى أن الأهداف الواضـحة تستحيل غامضة وخفية ، والمعالم البارزة تصبح وكأن ظـــلاما دامسا لفها فلا تكاد تظهر ، وعلى الرغم من محاولة اخفـــائها مايعتمل فى نفسها فقد أحسن ذلك منها ، وعلمه علما لا لبس فيه ، والذى يشفع له أنه متأكد من حبهـــا ، فهى لا تريد فراقه أو البعد عنه انهـا تريد أن يكونا قريبين ينعمان بالحياة ، ويسعدان بالشباب ، فما بالكم بهذا الشباب وقد أضحى خلقا باليا ، وما بالكم بتلك الرياض وقد جف ماؤها الذى كان يرويها انها لابد أن تتحول الى حالة من الذبول ، وعندما رأى الشمس وقد بدت للنـاظرين فأعشيت عيونهم ، وملأ ضوؤها أنظارهم نسى كل شىء ، أو تسلى بها عند فراق أهله وأحبابه .

مقدمة جيدة فيها جدة وحسن تصرف ، وقد يدخل فى الموضـوع مباشرة دون مقدمات أو يقدم للموضوع بذكر النتائج التى تنتظر منه ، فمن قصيدة يمدح بها المنصور بن أبى عامر ،ويذكر تجهيزه الجيـوش الى زبرى بن عطية زعيم قبيلة مغرادة البربرية :

لك الله بالنصر العزيز كفيـــل أجد مقـــام أم أجد رحيـــل

هـــو الفتح أما يومه فمعجـــل اليك وأما صـــنعه فجـــزيل

---

(٣١) ديوان ابن دراج ص ١٠ المصدر السابق .

وآيات نصر ماتـزال ولـم تـزل بهن عمـايات الضـــلال تزول
سيوف تنير الحق أنى انتضيتها وخيل يجول النصر حيث تجول
ألا فى سبيل الله غزوك من نحوى وضل به فى الناكثين سبيل (٣٢)

فقد دخل فى الموضـــوع دون مقـــدمات ، بل انه بشر ممدوحه بالنتائج التى بذ فيها الجميع من غزواته هذه ، بل انه جعـــل النصر مكفولا له من قبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى حله وترحاله · ويستمر ابن دراج فى تبشير ممدوحه بالنصر المعجل ، والمثوبة عليه يوم القيامة. فهو فتح لمرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لأنه يمحو به الضلال ، ويزيل به الكفر ، فسيوفه رصدت لتوضيح الحق ، بل انها تنير الحق فى أى وقت تقلدها ، وخيله يجول النصر فى جولاتها ، ويختم مقدمته ببيان أن غزوه من غوى وضل ، ورجع عن الدين انمـا هو غزو فى ســـبيل الله سبحانه وتعالى · وكأنه بذلك يرد على من يقـــول لماذا يغزو المنصـــور خصـــومه من المسلمين ، ألا يتجه بغـــزوه الى الروم وهو ماتعـــوده الناس معه ؟

وأحيانا يجعل افتتاحية قصيدته رجاء من ممدوحه أن يسـمح له بانشادها ، فذلك أمر يجعله يتيه عجبا ، لأن وقوفه بين يدى المنصـور هو غاية مايرجى ويتمنى يقول :

هل أنت مـدرك آمـالى فمحييها ومبدلى فى الورى من ذلتى فيها؟
بلحظـة تقتضى منى مكارمهـا هدية لك حاز السبق مهديهـا
جواهر من بحور العلم ليس لها الا اسـتماعلها قدر يساويها
حتى ترى الطرف فى كرات فارسه والكاعب الرود فى أثواب حاليها

---

(٣٢) ديوان ابن دراج ص ٣ ، ٤ المصدر السابق ·

عسى الذين تأوا عنى أخبـــرهم بأن نفسى مبلـــوغ أمانيهـــا (٣٣)

فهى افتتاحية نفسية ضمنها أمورا ثلاثة : الأمر الأول أن قبـول الممدوح لهذه القصيدة وانشـــادها بين يديه يحيى آماله ، ويرفـع من شأنه . وهما أمران عمل لهما ابن دراج كثيرا ، ألم يتـرك أهله وولده فى سبيلهما ؟ ألم يتجشم الصعاب والمشاقت من أجلهما ؟ فآماله الدفينة سيبعثها قبول المنصور لشعره ، وضعفه وذلته سـيتحولان الى زهـو وفخر أمام الجميع ، ولاينس ابن دراج أن يذكر للممدوح فى هذا الصدد أن هديته التى يريد انشادها انما جاءت بعد معاناة للشعر ، ومكـابدة له ، فجاءت قصيدته رائعه فى بابها عظيمة فى معناها ومبناها ، وهـو الأمر الثانى الذى أراده ، وقد ألح على ذلك كثيرا وكأنه يقول لخصومه وشانئيه انه أقوى منهم شاعرية وأرق منهم نسيجا ، فكلمـاته جواهر من يجود العلم لايساويها قدر الا اســتماعك لها ، وأكبر تقدير لهـذا الشعر أن تستمع اليه ، وتعجب به ، وتطـرب لانشـــاده ، انك ترى ذلك وضحا على حركات منشدها ، وانك ترى فى هذا الشعر الحمـاسة والطرب ، فقد مثل للحماشة بقوله « فى كرات فارسـه » ومثل للطرب بقوله « والكاعب الرود فى أثواب حاليها » فهذا الشعر يتنقل بك من الجد الى اللهو ، ومن القـــوة الى اللين والرخاوة ، وهو أمر لايستطيعه الا فحول الشعراء .

أما الأمر الثالث ـ وهو نفسى أيضـــا ـ فقد أراد الشـــاعر به استدرار عطف الممدوح ، وذلك فى قوله : ان قبـولك هذا الشـعر فيه رفع لمعنويات صاحبه ، فقد ترك أهله وولده من أجلك وقد كانوا يريدون ثناءه عن ذلك ، وكأنهم كانوا يقولون له : انك لن تجد لك مكـانا فى

---

(٣٣) ديوان ابن دراج ص ٩ المصدر السابق .

بلاط المنصور العامر بالشعراء والأدباء وأين أنت من هؤلاء ؟ فاذا قبلت هذا الشعر فاننى سأخبر أولئك الذين ابتعدوا عنى أننى قد بلغت آمالى، وحققت ما كانت تصبو اليه نفسى ٠

وهكذا تأتى مقدمات ابن دراج وقد ضربت فى أفانين الشعر فكان جديرا بهذه المكانة التى وصل اليها ، وخليقا بأن ياخذ مكانه فى بلاط المنصور بن أبى عامر الحافل بالشعراء والأدباء ٠

الوصف :

أما الوصف عند الأندلسيين فقد أوفى على الغاية ، فقد وصفوا طبيعة بلادهم الغنية بكل مفاتن البهجة ، والحافلة بكل مايعجب النفس ويبهج القلب ويسر الخاطر ، وقد يقول قائل : ان المشارقة كانوا أساتذة للأندلسيين فى فن الوصف فأبو تمام والبحترى والمتنبى قد وصفوا فاجادوا ، فقد وصف أبو تمام الربيع ، والبحترى كذلك ، ووصف المتنبى شعب بوان وصفا رائعا ، لكننا نقول أن الأندلسيين قد أجادوا فى موضوعات أخرى ، « فقد توسعوا فى شعر الطبيعة ، وتوعوا موضوعاته توسعا وتنوعا فاق كل اعتبار ، كما انهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكارا وتجديدا ودقة تصوير » (٣٤)

« ومرجع ذلك أولا أن طبيعة الأندلس هذه الطبيعة الرائعة الخلابة التى عبرت فيها الأرض عن نفسها أجمل تعبير مما أطلعته على سطحها ونثرته فى شتى أرجائها من طيب التربة ، وخصب الخباب ومن الأنهار الغزار ، والعيون العذاب ، ومن البر والبحر والسهل والوعر ، ومن

---

(٣٤) د٠ عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص٢٩١ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٦

الحقول والبساتين ، والحدائق والرياحين ، ومز الاعتدال الغالب فيها على الهواء والجو والنسيم ، وعلى الربيع والخريف ، والمشتى والمصيف ، ومن المدن الحصينة والقلاع المنيعة والمصانع الجليلة واستبحار التمدن والعمران ، ثم من ابيضاض الانسان ، ونبل الأذهان ، وشهامة الطباع » (٣٥)

فالأندلس هى الفردوس الأرضى ، وجنة الدنيا التى نعم بها أهلها دهرا ، وسعد بها سكانها زمنا فكانت كما قال ابن خقاجة :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد الا فى دياركم ولو تخيرت ٠٠ هذا كنت أختار
لا تخشوا بعد ذا أن تدخلوا شعرا
فليس تدخل بعد الجنة النار (٣٦)

واليك أيها القارىء ثلاثة نماذج للوصف وكلها فى وصف الأزهار . أحدها فى وصف النرجس ، والثانى فى وصف الورد ، والثالث فى وصف السوس ، وقد وردت فى ديوان ابن دراج متتابعة لعلها تشكل صورة فنية للوصف عنده ٠

١ ـ يقول فى وصف النرجس :

شكلا له من راح وروضة نرجس
يتنازعان الشبه وسط المجلس (٣٧)

---

(٣٥) د٠ عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص٢٩١ المرجع السابق ٠

(٣٦) لاتخشوا : لاتخافوا ٠

(٣٧) الشبه : الشبيه المماثل ٠ والشبه ضرب من النحاس ٠

متبـــاهيين تلـــونا بتلـــون

متبـــاريين تنفســـا بتنفس

لـكن هذى بين أحشـــاء الفتى

نـــار ، وهـــذا جنـــة للأنفس

فكأنهـــا من حـد ســـيفك تلتظى

وكـأنه من طيـــب خلقـك يكتسى

يامن عـــلا من رتبـــة فى رتبـــة

حتى غدا وســـط النجـوم الخنس

وابن الذين هداهـــم ونهـــاهم

أدب الملـوك وأســـوة للمؤتسى (٣٨)

وله أيضا رحمه الله فى الورد :

ضـــحك الزمان لنا فهـــاك وهاته

أو ما رأيت الـورد فى شـــجراته ؟

قد جاء بالنـــارنج من أغصـــانه

وبخجلة المعشـــوق من وجنـــاته

وكســـاه مـولانا غـــلائل سـيفه

يـــوما يسربله دمـاء غـــداته (٣٩)

من بعـــد مانفخ الحيـــا من روحه

فيه وعـــرف المســـك من نفحـــاته

---

(٣٨) ديوان ابن دراج ص ٣٨ ، ٣٩ المصدر السابق .

(٣٩) الغلالة : ثوب يلبس تحت الثوب وتحت الدرع ويجمـــع على غلائل .

ان كان أبدع واصف فى وصفه

فلقد تقاصر عن بديع صفاته

كمديح سيف الدولة الأعلى الذى

أعيا فأعيا فى مدى غاياته

ملك ينير الجود فى لحظاته

واليمن والايمان فى عزماته

وحياته ان كان أبقى حاجة

لمن ارتجاه غير طول حياته (٤٠)

وله أيضا رحمه الله فى السوسن :

ان كان وجه الربيع مبتسما فالسوسن المجتلى ثناياه

يا حسنه سن ضاحك عيق بطيب ريح الحبيب رياه

خاف عليه الحسود عاشقه فاشتق من ضده قسماه

وهو اذا مغرم تنسمه خلى على الأنف منه سيماه

كما يخلى الحبيب غالية فى عارضى الفه لذكراه

يا حاجيا مدبراه خالقه توجه بالعلى وحلاه

اذا رآه الزمان مبتسما فقد رأى كل ما تمناه

وان رآه الهلال مطلعا يقول : ربى وربك الله (٤١)

ثلاثة ألوان من الوصف يقدمها لنا ابن دراج القسطلى : أحدها فى وصف النرجس الذى عقد مقارنة بينه وبين الخمر التى تقدم للشربة فى مجلس ضم ممدوحه المنصور بن أبى عامر ، فالراح وروضة النرجس

---

(٤٠) ديوان ابن دراج ص ٤٠ - ٤١ المصدر السابق .

(٤١) ديوان ابن دراج ص ٤١ - ٤٢ المصدر السابق .

يتنازعان اللون الذهبى الذى يجمعها ، فكـــل منهمـــا يريد أن يحظى باعجاب الحضور يتباهيان بلونهما ، ويتباريان فى امتـــاع الجالسين ، فاذا كانت الخمر تحدث شعاعا عند صبها فى الاناء فترسل زفراتها الى عقول الشاربين فان النرجس يفوح أريجه فيعم المكـــان ، ويضفى عليه لونا من البهجة والسرور ، وان السرور الذى يجده شـــارب الخمر غير السرور الذى يسعد به مستنشق النرجس ، فالخمـــر نار فى أحشـــاء شاربها تقطع أمعاءه أما النرجس فهـــو جنة للأنفس تتمتـــع فيها بكل ألوان السعادة والنعيم ، ويستمر ابن دراج يقارن بين الخمر والنرجس، فالأولى شبهها بحد السيف وكانهـــا تأخذ حرارتهـــا من حد ســـيف المنصور بن أبى عامر ، أما النرجس فيأخذ حليته من طيب خلقه ، وهنا وجد مناسبة لمدح المنصور فقال : انه عالى المرتبة ، فهو نجم بين النجوم العوالى ، وهو ابن الذين تأدبوا بآداب الملوك وتحلوا بأخلاق العظماء ، وجدير بمن يقترب منهم أن يتأسى بهم .

أما المقطوعة الثانية فقد وصف فيها الورد ، وقد استطاع بأسلوب الاستفهام التعجبى أن يلفت انتباه السامع الى جمـــال الورد ، ومن من الناس لايروعه منظر الورد ، وقد اختلفت ألوانه ، وســـطعت بالعبير أردانه ، لقد نعم الجميع برائحة الورد التى أذكت الجو وكأنه معطـــر برائحة النارنج فنعم الجميع بها ، وسعدوا بشـــذاها ، أما براعم الورد فكانت شبيهة بالحمرة التى تبدو على وجنـــات المعشوق ، أو شبيهة بالدماء التى ظهرت على سيف ممدوحه بعد أن أعمله فى رقاب أعدائه لقد عمه المطر فنفخ فى روحه فجـــاءت رائحته شبيهة برائحة المسك ، فمهما وصفه الواصفون ، أو أبدع فيه المبدعون فقد تقاصر وصفهم عن بديع صفاته ، انهم حتى الآن لم يقولوا الكلمة الفصل فى وصف الورد

تماما كما حاول المادحون مدح سيف الدولة ـ المنصور بن أبى عامر ـ ولكن صفاته أعيتهم ، وشمائلة غلبتهم ، انه ملك عظيم ينير الجود فى لحظاته واليمن والايمان فى عزماته لقد نعم الجميع بحياته ، فلم يبق حاجة لمحتاج ، ومن أجل ذلك فان الجميع يتمنى طول حياته ليسعدوا بجميل نواله ، وعظيم عطاياه .

وتأتى المقطوعة الثالثة لتصف السوسن ، وقد جعله بمثابة الثنايا التى تكون فى فم الانسان فتضفى على ضحكاته جمالا ، فاذا ابتسم الربيع . وعم الكون جماله ، وتبسم نوره للناس فان السوسن ، يجمله ويزينه ، وما أجمله من سن ضاحك يرتوى بطيب رائحة الحبيب ، لقد سمى بالسوسن حتى لايحسد فهو مشتق من الوسواس وقد استعيذ منه ، فهو مشتق من ضده أى من الحسود ، ثم يقول : انه اذا تنسمه عاشق فان رائحته تستمر مدة لا تفارق صاحبها ، وكأنها تشير اليه أنه تنسم عبير السوسن فهو يترك علامة دالة عليه كما يترك الحبيب علامة دالة على حبه فى عارضى الفه حتى يذكره بها دائما ، وعندما ذكر السوسن والأنف والغالية ناسب أن يذكر الحاجب وهى تورية جميلة، فالمعنى القريب هو حاجب الحبيب ، والمعنى البعيد هو الحاجب المنصور ابن أبى عامر الذى كان من خلقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ متوجا بالعلا ، فاذا تبسمت الدنيا كلها ، واذا رأيته كذلك فقد رأيت كل ماتتمناه ، واذا رآه الهلال فى طلعته لايسعه الا أن يقول متعجبا من جمال طلعته ، مما أجمل صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وهذه الأوصاف كلها لجالى الطبيعة أتى بها ابن دراج ليستنتج منها وصفا لممدوحه المنصور ثم يعطينا صورة للوصف عند الأندلسيين

الذى يكون حسيا تارة ، ونفسيا تارة أخرى ثم هو يعطينا تصورا لهذه المجالس التى كانت تعقد فى بلاد الأندلس فقد بدأت مجالس الأنس كظاهرة اجتماعية فى أخريات دولة الأمويين بالأندلس ، ثم أخذت هذه الظاهرة فى الشيوع والانتشار فى عصر ملوك الطوائف وماتلاه من عصور وشارك فيها الخاصة والعامة على السواء .

« ومن هذه المجالس ما كان يعقد فى المساء فيدوم طوال الليل ، وما كان يعقد فى الصباح فيدوم طوال النهار ، وكلا النوعين من مجالس الأنس كان يشترك فى وصف أمور بعينها ، ثم ينفرد كلاهما بعد ذلك بأمور : كأن يشتركا فى وصف الخمر وسقاتها وأدواتها من كئوس وأباريق ، ثم تنفرد مجالس الليل بوصف مجالى السماء من كواكب ونجوم بضيائها ولألائها ، كما تنفرد مجالس النهار بوصف مجالى الأرض ممثلة فى رياضها وأزهارها وأنهارها وجداولها وغير ذلك من مباهج الأرض التى تقع تحت أبصارهم وينفعلون بها »

« ومن هذه المجالس مجالس الملوك والأمراء ، وكانت تعقد عادة فى قصورهم ، أو فى زوارق على الأنهار ، ونحف بها السفن ، وهذه وتلك كان يدعى اليها أعيان الوزراء ، ونبهاء الشعراء وأهل الموسيقى والغناء ، وبذلك يتعاون الشعر والفن والشراب فى اضفاء جو من الأنس والطرب والبهجة على هذه المجالس » (٤٢)

ولقد مر بنا وصف ابن دراج لمجلس أنس عندما مدح الخليفة هشاما ووصف روضة سوسن وذلك فى قوله :

---

(٤٢) د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص٣٠٨ المرجع السابق .

جهز لنا فى الأرض غـزوة محتسب

واندب اليهـا من يسـاعد وانتدب

واحمل على خيل الهوى شيم الصبا

واعقد لجيش اللهـو ألوية الطـرب

واهتف بأجنـاد السرور وقد بهـا

نحو الرياض وأنت أكـرم من ركب

جيشـا تكـون طبـوله عبدانه

وقرونه النـايات تسعدها القصب

حتى يقـول :

فاذا غنمت هنـاك أمثـال الدمى

فهنا بيـوت المسك فاغنـم وانهب

تحفـا لشعبان جـلا لك وجهـه

عوضـا من الورد الذى أهدى رجب

فاقبـل هديته فقـد وافى بهـا

قدرا الى أن الصـيام اذا وجب (٤٣)

ولا يقتصر شعر ابن دراج على المدح والوصف بألـوانه المختلفة ، وانمـا نراه يخوض فى بحور الشـعر المختلفة ، وأغراضه المعروفة فنراه أحيانا يتغزل فى فتاة غدرت به ، وأسـاءت به الظن خوفا منه فيعتب عليها فعلها هذا ، ويستعظم صنيعها ، ويأتى ذلك منه غاية فى الرقة ونهاية فى العذوبة ، يقول ابن دراج ٠

---

(٤٣) ديوان ابن دراج ص ٣٥ ـ ٣٧ المصدر السابق ٠

سـأمنع قلبى أن يحـن اليـك ... وأنهى دمـوعى ان تفيض عليـك
أغدرا ولم أغدر ، وخوفا ولم أخن ... لقد ضـاع صدق الـوفاء لديك
بفعلك عبب الخسف عندى وان غدت ... مهـاة النقاد والشمس مشتبهيك
أصد بوجهى سـنا الشـمس طالعا ... لأن صار منسوب الصفات اليك
وأسـتقطع الشـهد اللذيذ مذاقه ... لطعمه الموجـود فى شـفتيك
وأصرف عن ذكراك سمعى ومنطقى ... ولـو نازعتنيها حمـامة أيـك
ولـو عن لى ظبى الفـلا لاجتنبته ... تتمثـال عينيك وسـالفتيك

وهذه الأبيات غنية عن التحليل ، فهى لـون فريد من الغـزل والصبوة ، فقد أطلق الشاعر لفنه وقلبه العنان فجاءت الأبيات غاية فى قوة العاطفة وفنية التعبير .

ونختم جولتنا مـع ابن دراج بهذه القصيدة التى قالها فى رثاء السيدة أم هشام أمير المؤمنين المؤيد بالله :

بقـاء الخـلائق رهن الفنـاء ... وقصر التدانى وشيك التنـائى
لقد حـل من يومه الاقتـراب ... وقد حان من عمره لانتهـاء
هـل الملك بملك من المنـون ... أم العز يصرف صرف القضاء ؟
هو الموت يصدع شمل الجميع ... ويكسو الربوع ثيـاب العقساء
يبز الحيـاة ببطش شـديد ... ويلقى النفـوس بداء عيـاء
ألم تر كيف استـباحت يداه ... كـريم الملوك وعلق النسـاء ؟
ووافى بسـيدة السـيدا ... ت مأوى البلى ومنـاخ الفناء ؟
هو الرزء ألوى بعزم القلـوب ... مصـابا ، وأودى بحسن العـزاء
فما فى العـويل له من كفىء ... ولافى الدمـوع له من شـفاء (٤٤)

---

(٤٤) ديوان ابن دراج القسطلى من ص : ١١٩ - ١٢٣ المصـدر السابق .

لعل القارىء لهذه الأبيات يدرك منهج ابن دراج فى الرثاء ، وعلى الرغم مما يؤخذ عليه من تجاوزات عقدية ؟ حيث جعل الانسان رهن الفناء ونحن نؤمن بأن الموت ، انتقال فقط من دار الفناء الى دار البقاء « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » لكنه قد يكون أراد بالفناء الموت ، لكنه بعد ذلك يركز على التسليم بقضاء الله وقدره ، فلن يستطيع انسان مهما بلغ من جاه وسلطان أن يفر من الموت « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ويضرب مثلا على ذلك بسيدة السيدات التى اختطفها الموت وأودعها قبرها ، فلم يجد البكاء ولا العويل .

وهكذا نختتم جولتنا فى ديوان ابن دراج القسطلى التى أردنا بها اعطاء القارىء صورة عامة لشعره ، ودوره فى مسيرة الشعر الأندلسى .

سمات شعره الفنية :

عرض الدكتور شوقى ضيف لحديث النقاد القدامى عن ابن دراج فذكر كلام صاحب اليتيمة الذى قال فيه : كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ماينظم » . ثم ذكر قول ابن بسام « كان لسان الجزيرة شاعرا ،وأولا من عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها .. » ، ثم قال : « وواضح من آراء النقاد جميعا أن ابن دراج كان شاعرا ممتازا ، حتى ليجعله أبو حيان خاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين ، وهى مبالغة من بعض الوجوه ، ولكنها تدل على حقيقة مطوية فيها ، وهى أن ابن دراج يعد من الشعراء الأفذاذ الذين ظهروا فى الأندلس ، ونرى صاحب التيمية يقرنه بالمتنبى ،ويظهر أنه كان بتأثره فى شعره تأثرا شديدا لا يقل عن تأثير ابن هانى، وان

كنا نلاحظ أنه لم يستظهر فى شـــعره شيئا من العبـــارات الشيعية والصوفية غير أنه بعد ذلك يستظهر جميع خصائص المتنبى ، فهو يميل الى الغريب فى شعره من جهة ، كما يميل الى التصنع للثقافات من جهة أخرى ، ثم يعود بعد ذلك كابن هانىء يعنى باللفظ الطنان وقعقعاته ، وقد تعلق مثل المتنبى فى مطلع مدائحه بشكوى الدهر ، والسخط على الناس فى عصره ، وســـاعده على ذلك أنه كان عصر فتن وثورات على الأمويين واستعداد لظهور ملوك الطوائف » (٤٥)

لعلنا من خلال حديث الدكتور ـ شـــوقى ضيف عن ابن دراج نستطيع أن نتبين ملامحه الفنية ، فقد اتفق معظم الذين ترجموا له أنه شبه المتنبى فى الشرق ، ولعلهم أرادوا بذلك أنه عكف فى أول حيـــاته على مدح المنصور بن أبى عامر ، ثم مال به الزمن ، وقلبت له الأيام ظهر المجن ، فأخذ يسير يمينا وشمالا عله يجد ممدوحا يقدر فنه ، تماما كما حدث للمتنبى عندما ترك ســـيف الدولة ، ورحل الى كافور ومنه الى العراق ، ثم بـــلاد فارس ليمدح عضد الدولة بن بويه ، ووزيره ابن العميد .

ولكن هل كان ابن دراج يحذو حذو المتنبى فى كل شعره ؟ وهل نستطيع أن نقول انه صورة أخرى للمتنبى فى الأندلس ؟ ان التـــأثر بشاعر أو أديب لايعنى أن يكون المتأثر صورة لمن تأثر به .

ان القارىء لشعر ابن دراج الذى عرضناه يتبين منه منهجه فى ذلك ، فقد التزم المنهج المحافظ فى شعره ، او قل انه سار على مذهب

---

(٤٥) د. شـــوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشـــعر ص ٤٢٥ ط دار المعارف ١٩٦٠م

أهل البديع ، ولكنه أكثر من الجناس غير أنه اقترب من المتنبى فى شكواه من الدهر ، ولعل الذى دفعه الى ذلك فقر نزل به فقلب نعيمه بؤسا وسعادته شقاء ـ يقول من قصيداته التى يعارض بها المتبنى والتى قالها فى مدح ابن العميد ومطلعها :

من مبلغ الاعراب أنى بعدها
جالست رسطاليس والاسكندرا
ولقيت بطليموس دارس كتبه
متبديا فى ملله متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما
رد الاله نفوسهم والأعصر
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما
وأتى فذلك اذا أتيت مؤخرا (٤٦)

قال ابن دراج معارضا له :

أبنى لاتذهب بنفسك حسرة
عن غول رحلى منجدا أو مغورا
فلئن تركت الليل فوقى داجيا
فلقد لقيت الصبح بعدك أزهرا
وحللت أرضا بدلت حصباؤها
ذهبا يرق لناظرى وجوهرا

---

(٤٦) ديوان المتبنى جـ ٢ ص ٢٦٤ ـ ٢٨٠ . وضعه عبد الرحمن البرقوقى . دار الكتاب العربى بيروت ـ لبنان .

ولتعلم الأملاك أنى بعدها
ألفيت كل الصيد فى جوف الفرا
ورمى على رداءهم من دونهم
ملك تخير للعلا فتخيرا
ضربوا قداحهم على ففاز بى
من كان بالقدح المعلى أجدرا (٤٧)

فاذا كان المتنبى قد تاه عجبا بأنه وجد فى ابن العميد برسفاليس والاسكندر وبطليموس وهى أسماء أعجمية أراد بذكرها أن يجوز اعجاب ابن العميد لمعرفته هذه الأعلام ، وأن يستحوذ على عطفه ، وأن يقول لسيف الدولة الحمدانى العربى اننى وجدت عند الفرس تكريما لم أحصل عليه عند العرب فان ابن داج كان عربيا لحما ودما ، فهو يخاطب المنصور بن أبى عامر العربى ، فلا بد أن يفتخر بكل ما هو عربى ومن أجل ذلك أتى بالمثل العربى المشهور « كل الصيد فى جوف الفرا » واستخداما ينم عن قدرة فنية رائدة ، واتخذ من عادة ضرب القداح العربية سبيلا الى امتلاك قلب المنصور أيضا ؛ وكأنه يقول للسامعين انه يعرف أمجاد العرب ومفاخرهم ، وهى أمجاد لا تبلى مع الزمن ، وانما تتجدد استخداماتها ، ولهذا فاننا لانرى مجالا لنقد الدكتور شوقى ضيف ، فقد عاب على ابن دراج استخدامه لهذا المثل المعروف ، كما عاب عليه اتيانه بفكرة القداح المعروفة عند العرب القدماء .

ولقد نبغ ابن دراج فى لون آخر من الشعر لم نجده عند المتنبى ، فقد برز فى شعر ابن دراج حبه لأسرته والعمل الدائب من أجلها ، فهو

---

(٤٧) ديوان ابن دراج ص ١٢٩ المصدر السابق .

يتجشم الصعاب ، كى يوفر حياة كريمة لأبنائه ، ولعل القارىء قد استيقن من ذلك من ما قرأ شعره الذى تقدم وخاصة فى افتتاحيات قصائده التى جاءت تعمق جانب الاحساس بأسرته : زوجه وأبنائه ، ولقد تقدم تحليل لتلك القصيدة التى يعارض بها قصيدة أبى نواس فهو يقول مخاطبا زوجه

دعى عزمات المستضام تسـير
فتنجد فى عض الفـلاد تغور
لعل بما أشجاك من لوعة النوى
يعز ذليل أو يفك أسـير

ثم يصف ساعة فراق زوجه وصفا دقيقا ، فهو يسليها ، ويخفف عنها لأواء الفراق ومرارة البعد .

وانظر الى ابن دراج وهو يعقد مقارنة بين موقفه من بنيه وموقف ممدوحه من جنده . حيث يقول :

وقد عاذ أبطال الجـلاد بعطفه
كما عاذ أطفال الجلاء بعطفيـا
وقد قصرت عنه رماح عـداته
كما قصرت عنهم رياش جناحيا
ولكن أواسى بين عـار ولابس
أقصر عن ذيـا لأثنى عن ذيـا (٤٨)

فقد صور أبناءه وهم يتعلقون به كما يتعلق الجنود بقائدهم ، لكن قائدهم مقتدر يستطيع أن يعمهم بعطفه ، ويشملهم بفيضه أما هو فعاجز عن ذلك ، فبينما هذا القائد يدفع عنه جنوده رماح أعدائه فلا تصل اليه

---

(٤٨) ديوان ابن دراج ص ١٧٩ المصدر السابق .

اذا به هو يقصر عن شمول أطفاله بجناحيه فلا تكاد تشملهم لضيق ذات اليد ، ولا يستطيع أن يحضر لهم ثيابا تستر أجسادهم فيحاول المواساة بين العارى والكاسى ، أو يحاول تقصير ثياب بعضهم ليجد فضلة يستر بها جسده الآخر ، وهى أبيات يتضح من خلالها عطف ابن دراج على أسرته وهذا ما لم نجده عند المتنبى .

ثم هو أحيانا يصور الآلام النفسية التى تصيب أبناءه عن شعورهم بالغربة فيقول :

يتوهمون اذا رأت أوهامهم
دارا لساكنها بها استقرار
ويهيم عين لهن مرابض
وبشوقهم طير لها أوكار (٤٩)

وهذه النماذج التى قدمتها تجعل ابن دراج منفردا فى جوانب عدة فقد فاق غيره فى مواضع متعددة ، لكنه أحيانا يميل الى كثرة الجناس والترصيع ، ولعل هذا فرضته عليه صلته بالملوك والأمراء ، فلقد أحدث هؤلاء الحكام فى الحياة العربية أحداثا لم تكن مألوفة من قبل ، وتحول المجتمع من البساطة التى درج عليها العرب الى تعقيد فى كل مناحى الحياة ، حتى ان نظرة الناس وعنايتهم بالسلطان جعلتهم يميلون الى المبالغة فى ملبسهم ، بل وفى مأكلهم ومشربهم ولقد سمعنا عن تلك الحلل الرسمية التى عنى بها الوزراء ليقابلوا فيها الخلفاء .

هذا الكلف فى الحياة الاجتماعية صحبه كلف فى الأدب ، فان الأدباء

---

(٤٩) ديوان ابن دراج ص ١٥٧ المصدر السابق والعين جمع عيناء واسعة العينين وهى الأبقار الوحشية .

يتعاملون مع مجتمعهم ، ولابد لهم من زخرفة أسلوبهم وتوشية أدبهم بمثل مادرج عليه المجتمع فى مأكله ومشربه وملبسه ، فاذا قرأنا لأحد الكتاب يصف مجلسا ، وقد استعمل كثيرا من ألوان السجع والتشبيه والاستعارة فى قوله : قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات التازيخ ، وانطلقت ألسنة العيدان ، ولعبت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وامتدت سماء الند ، فاننا نتصور مدى ما أصاب أسلوب الحياة الاجتماعية ، ان هذه التزاويق اللفظية صدى للتزاويق والحياة الاجتماعية .

اننا اذا تصورنا ذلك فاننا لانكر على ابن دراج استخدامه للجناس ، وألوان البديع المختلفة فى شعره ، فقد مرت بنا قصيدته التى يمدح فيها هشاما ، ويصف مجلس أنس ، وهو صادق مع نفسه ومجتمعه فماذا يقول أمام أمير المؤمنين وهو يصف هذا المجلس انه لابد أن يتخير الألفاظ والزينات المناسبة لجمال الموقف ، فهو يقول :

واهزز رماحا من تباشير المنى
واسلل سيوفا مو معتقة العنب
وانصب مجانيقا من النيم التى
أحجارهن من الروابط والنخب
شرفاتها من فضة وحماتها
حول الأمير لهم سيوف من ذهب

لقد عاب الدكتور شوقى ضيف على ابن دراج استخدام هذا اللون من البديع ، فأورد جانبا من قصيدته التى مطلعها :

أبنى لاتذهب بنفسك حسرة عن غول رحلى منجدا أو مغورا

يقول الدكتور شوقى ضيف : واستمر فى القصيدة فستراه يقول:

كلا وقـــد آنست من هودهدى

ولقيت «يعرب» فى القبول وحميرا

وأصبت فى ســـبأ مورث ملكها

بسبى الملوك ولا يدب لها الضرا (٥٠)

فكأنمـا تابعت تبع رافعـــا

أعـــلامه ملكا يدين له الورى

والحارث الجفنى ممنوع الحمى

بالخيل والآساد مبذول القرى

وحططت رحلى بين نارى حـاتم

أيام بقرى موسرا أو معسرا

ولقيت زيد الخيل تحت عجاجة

تكسو غلائلها الجياد الضـــمرا

وعقدت فى يمن مواثق ذمة

مشدودة الأسباب موثقة العرى

وأتيت بجدول وهو يرفع منبرا

للدين والدنيا ويخفض منبرا

« وأظن صوت ابن دراج اتضح لنا الآن تمام الوضوح ، فهو يغنى - كما قال ابن شهيد - بالنسب اذ يرد ممدوحه (منذر بن يحيى) الى

---

(٥٠) الضرا : الاستخفاء يريد أنه يهجم على أعدائه جهارا لقوته وشجاعته .

اليمن فينسبه الى ملوكها ، ومشاهيرها ، وهو فى أثناء ذلك يصنع للجناس ابن هود وهدى ، وسبا ويسبى ، وتابع وتبع ، أرأيت الى ابن دراج ؟ انه كان - كما قال ابن شهيد - يصنع للبديع كما يتصنع للغريب والأمثال كهذا المثل المعروف « يدب له الضرا » ولايكتفى بذلك بل نراه يتصنع فى آخر هذه الأبيات للرفع والخفض المعروفين فى علم النحو ، وواضح مافى ذكرهما من تكلف وتصنع » (٥١) .

وواضح مما قدمت أن ابن دراج صادق مع نفسه وفنه ، فهو يمدح أميرا عربيا عنيا ، ولا بد له من ذكر أعلام العرب الذين يعتز بهم ممدوحه. فالحارث الجفنى ، وحاتم الطائى ، وزيد الخيل له من ذكر أعلام العرب ومفاخرها ، ولابد له أيضا من توشية شعره ببعض الزينات اللفظية التى تناسب جمال الموقف .

ألم يقف أبو تمام من قبل هذا الموقف عندما قال :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

وعندما قيل له : لم تزد على أن شبهت الأمير بصعاليك العرب قال مرتجلا :

لا تنكروا ضربى له من دونه
مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلا من المشكاة والنبراس

ونحن اذ نقول ذلك لانوافق الشاعر الذى يسرف فى مثل هذه

---

(٥١) د . شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٤٢٧ المصدر السابق .

الزينات ، أو يحول قصيدته الى بديعية من البديعيات التى نشأت فى عصر المتأخرين يوم أن أعيتهم الحيلة ، وأنهكتهم الوسيلة الى الشعر الجيد فرحوا فى أغلال التقليد المميت ، لكننا نقول ان الشاعر يوم أن يرد فى شعره شيء من البديع عفوا ودون تكلف أو استكراه فهذا أمر لايعيبه عليه عائب .

ولا أظننا ننهى بحثنا عن ابن دراج دون أن نقف وقفة مع آراء النقاد المحدثين والقدامى أما المحدثون فقد انقسموا فريقين : فريقا يتجه باللائمة على ابن دراج ، بل على الشعر الأندلسى بعامة ويأتى فى مقدمتهم الدكتور شوقى ضيف الذى قال فى نهاية حديثه عن ابن دراج : « وأكبر الظن أن منهج ابن دراج اتضح لنا الآن ، وتكشف عن جميع صفاته وخصائصه ، وهو ليس منهجا جديدا ، فالأندلس لاتستطيع أن تمد الأدب العربى بمنهج جديد لا من حيث الموضوعات ولا من حيث المعانى ، ولا من حيث الأخيلة والأساليب انما كل ماهناك أنها تستطيع أن تفخر بشعراء يعيشون فى اطار الشعر العباسى العام ، وهم يعيشون فى هذا الاطار معيشة مضطربة اذ ترى الشاعر الواحد يخلط بين مذاهب الفن العباسى خلطا شديدا ، فهو تارة صانع يفيض بالشعور ، ولايجعل للزخرف سبيلا اليه كما رأينا عن ابن دراج فى وداعه لزوجه وطفله وتارة نراه متصنعا يعنى بالتصنيع للثقافات كما يعنى بالغريب والانساب والأمثال والاقتباس من القرآن الكريم على نحو ما رأينا عند ابن دراج أيضا ، ثم هو أخيرا مصنع يشفع شعره بألوان التصنيع والزخرف العباسى من جناس وطباق وتصوير على نحو ما مرينا عند ابن دراج وهكذا نرى الشاعر الأندلسى يجمع فى شعره بين جميع المذاهب العباسية ، وهذا هو معنى مانقول من

أن الشعراء الأندلسيين يخلطون خلطا شديدا بين المذاهب الفنية للشعر العربى اذ يستعيرون منها جميعا بدون تفريق ولا اختلاف فى التطبيق(٥٢)

هذا هو رأى الدكتور شوقى ضيف . أو وجهة نظره فى الشعر الأندلسى ، بل يمكن أن تكون وجهة نظره فى الشعر العربى بعامة لقد اختط لكتابه الفن ومذاهبه فى الشعر ، تلك الخطة التى عبر عنها بمذهب الصنعة ، ومذهب التصنيع ، ونفى أن يكون هناك شعر مطبوع فى الشعر العربى من لدن العصر الجاهلى وحتى عصرنا الحاضر ، وهو اذ يصنع ذلك مع الشعر العربى يرمى الأندلس بأنها مقلدة للشعراء فى كل فنون شعرها ، لكننا نراه جنبا آخر يقول عن الأندلس : « ولعل أهم مايميز الأندلس ترفها ونعيمها » ووصف شعرائها لطبيعتها وحسن مناظرها . فقد ذهبوا بمشاهدها ومواطن الجمال والفتنة فيها ويشيدون بها أيما اشادة كقول ابن سفر المرينى :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء
ولا تفارق فيها القلب سراء
وكيف لاتبهج الأبصار رؤيتها
وكل روض بها فى الوش صنعاء
أنهارها فضة والمسلك تربتها
والخز روضتها والدر حصباء(٥٣)

---

(٥٢) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٤٣١ المرجع السابق .

(٥٣) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر ص ٤١١ المرجع السابق .

لقد تفنن الأندسيون تفننا واسعا فى هذا الجانب ، وبذلك تركوا مادة كبيرة فى شعر الطبيعة ، وساقهم ترفهم الى وصف الخمر مع وصف الزهر ، ثم وصف مجالس الشراب وما تنطوى عليه من قيان ـ وهذا ما رأيناه عند ابن دراج ، واستتبع ذلك الترف عندهم غناء واسعا كان من آثاره ظهور الموشحات والأزجال ، وهى الصورة العامة لشخصية الأندلس وهى شخصية رسختها البيئة والطبيعة .

ان الحروب التى قام بها الأمراء والخلفاء فى الأندلس خلقت ـ أيضا ـ لونا جديدا فى الشعر ، واذا قال قائل إن الشعراء فى المشرق قاموا بهذا الدور من قبل فاننا نقول لهم ان شعراء الأندلس توسعوا فى هذا الجانب ، فقد كان المنصور بن أبى عامر عندما يسير الى غزو أعدائه يصطحب معه مجموعة كبيرة من الشعراء يتبارون فى وصف هذه الانتصارات التى عرف بها ، بل ان هناك لونا جديدا تفردت به الأندلس من بعد وهو بكاء المدن الزائلة ، فما سقطت بلدة ، او أشرفت على السقوط حتى قالوا فيها شعرا قويا حزينا ، وربما كان من خير الأمثلة على ذلك قصيدة ابن عبدون :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك معذرة
عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان أبدى مسالمة
والسود والبيض مثل البيض والسمر

وقصيدة أبى البقاء الرندى كان لها القدح المعلى فى هذا الجانب ومطلعها ·

لكل شىء اذا ما تم نقصـــان

فلا يغر بطيب العيش انســان

هى الأمور كما شـــاهدتها دول

من سره زمن ســـاءته أزمان

أما الدكتور أحمد هيكل فقد أنصف الأندلس وشـــعراءها عندما قال : « ذلك أن الأندلسيين ما عاشوا فى تلك السهول الخصيبة ذات الجمال الطبعى الفاتن ، وقد انعكس هذا على الناس خصوبة فى خيالهم وجمالا فى طباعهم ، ورقة فى أحاسيسهم ، وأخرج منهم أناسا يغلب عليهم طابع المحبين للجمال مشاهدة وتمثلا ، ثم محاكا وتصويرا » (٥٤) ·

بل رأينا الدكتور حسن جاد حسن فى بحثه القيم عن ابن زيدون يضع الشعراء الأندلسيين فى مقدمة شعراء الوجدان ، والاحساس بما للطبيعة من أثر فى اثراء فن الشعر والخيال · ، والواقع الذى شاهده من نفسه أن الأندلسيين قد فاقوا المشارقة فى شعر الطبيعة كما وكيفا ، وتوسعا ونوعوا فى موضوعاته توسعا وتنوعا فاق كل اعتبار ، كما أنهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكارا وتجديدا ودقة تصوير » (٥٥) ·

أما النقاد القدامى فقد وضعوا ابن دراج فى مقدمة فحول الشعراء فقد تقدم قول صاحب اليتيمة عنه ، كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع

---

(٥٤) د· أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٥٠ ــ ٥١ ، ط دار المعارف ·

(٥٥) د· عبد العزيز عتيق · الأدب العربى فى الأندلس ص ٢٩١ المرجع السابق ·

الشام ، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ماينظم ، ولا يشك انسان في حيدة الثعالبى ، فقد وضعه أولا مساويا للمتنبى ، ثم قال عنه انه أحد الشعراء الفحول .

أما ابن بسام فعلى الرغم من أنه عرض لآراء ابن شهيد فى ابن دراج والتى اعتمد عليها الدكتور شوقى ضيف فى نقده لابن دراج ، وآراء ابن شهيد كما نعلم ساقها فى معرض افتخاره على الشعراء جميعا ، بل انه تخيل أنه ذهب الى وادى الجن وأحضر شياطين الشعراء السابقين فغلبهم واذا صنع ذلك مع الشعراء السابقين فجدير به أن يغلب الشعراء المعاصرين ، على الرغم من كل ذلك فان ابن بسام يقول عن ابن دراج : « كان لسان الجزيرة شاعرا ، وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها له عقد فخرها المحمول وسهم ، وبه بدىء ذكرها الجميل وختم حل اسمه من الأمانى محل الأندلس ، وسار نظمه ونثره فى الأقاصى والأدانى مسير الشمس ، وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدره» (٥٦)

هذا هو ابن دراج القسطلى شاعر المنصور بن أبى عامر أقدمه للقراء فى هذا البحث علهم يجدون فيه ما يروقهم ، أو يدفعهم الى مزيد من البحث ، فلم أدع أننى وافيت على الغاية ، أو أتيت بالقول الفصل وهذا ما لايستطيع باحث قوله .

والله أسأل أن يهدينا - جميعا - سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ..

الدكتور عبد المنعم أحمد يونس
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
بالمنوفية

---

(٥٦) الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ ص ٤٣ المصدر السابق